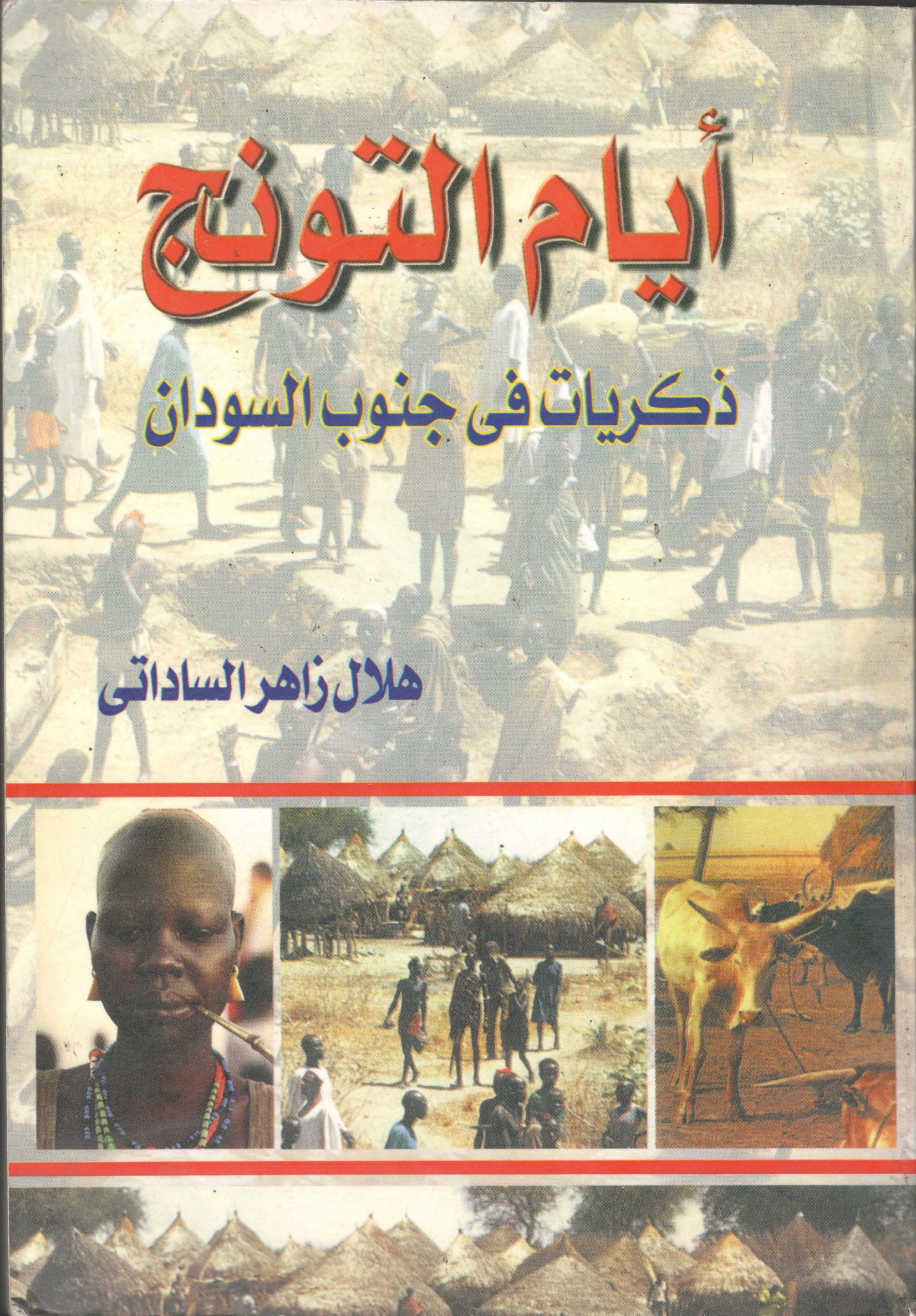
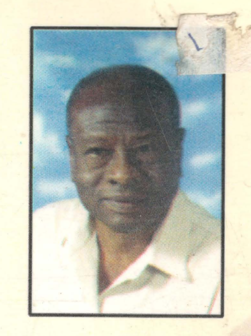
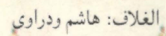


أيام التونج
ذكريات فى جنوب السودان
هلال زاهر الساداتى



- هلال زاهر سرور الساداتي
- من مواليد حي الموردة (فريق ريد) بمدينة ام درمان في السودان
- متزوج وله ثلاث بنات وولد
- تخرج في كلية المعلمين الوسطي ببخت الرضا وعمل معلما ومديرا وموجها بالمرحلة المتوسطة بالسودان وموجها تربويا بالمملكة العربية السعودية.
- نشر اول قصتين له في اواخر الخمسينات من القرن الماضي بمجلة صوت المرأة التي كان يصدرها الاتحاد النسائي السوداني وبصحيفة القافلة التي كانت تصدرها الاستاذة حاجة كاشف.
- كتب مقالات بصحيفتي الايام والرأي العام اليوميتين بالسودان في الستينات من القرن الماضي.
- اشتغل بالعمل الوطني في عهد الاستعمار الانجليزي للسودان وكان رئيسا لاتحاد الطلبة بمدرسة الاحفاد الثانوية وعضو اللجنة المركزية لمؤتمر الطلاب وفصل من الدراسة لهذا السبب، كما فصل لاحقا من الجامعة من كلية الحقوق بجامعة القاهرة بمصر لذات السبب.
- متقاعد بالمعاش ومقيم حاليا بالقاهرة.


الشركة العالمية للطباعة والنشر


الغلاف: هاشم ودراوى

أيام التونج

ذكريات فى جنوب السودان

هلال زاهر الساداتى



الفهرس

مقدمة

بقلم الاستاذ محجوب عثمان، وزير الاعلام السوداني الأسبق والسفير ورئيس تحرير صحيفة الأيام اليومية بالسودان (سابقا)

اهتمام اهل القلم في السودان الشمالي بالخوض في تفاصيل الحياة في الجنوب محدود وقاصر وبالتالي فان ذخيرة المواطن الشمالي من حقائق العيش في ذلك الشطر من الوطن قاحلة جدباء .. ولعل من يتابع هذه الظاهرة علي امتداد نصف القرن الاخير يجد ان الالتفات للجنوب والاعتناء بقضاياه ، حتي من الناحية السياسية وحدها لم يحتل مكانه الا بعد ان فرضت الاحداث الدامية هناك ذاتها علي مجمل الواقع السوداني وكان مؤتمر المائدة المستديرة في النصف الثاني من الستينيات معلما" من معالم تحول في وعي الفرد الشمالي بما يجري في الجنوب. ولكنه تحول اقتصر علي الجانب السياسي وحده ، اي ان القصور في التعرف المفصل عن الوضع في الجنوب ، بعيدا عن السياسة ، لا يزيد علي بضع مقالات متناثرة لا تسمن ولا تغني من جوع.

ان هذه الحقيقة وحدها تضع هذا السفر الذي بين يديك في مقام ما هو هام لأنه يغطي قدرا من النقص ، ويفتح الباب للمزيد من التجارب والذكريات المماثلة.

ان كثيرا من الشماليين انتدبوا للعمل في الجنوب في شتي جوانب الحياة وقدموا بصورة عامة ما لا سبيل لانكاره. ولكن اغلبية هؤلاء كانت تنظر لتلك المهمة من زاوية الكسب الخاص وحدها. وما اكثر الذين ما خرجوا من التجربة الا بحفنة من المال ثمنا لاخشاب مسروقة او متاجرة في سن الفيل وغيره من خيرات الجنوب ، بل وحتي في تهريب البنقو الاستوائي من الجنوب للشمال. قليلون جدا اولئك الذين عكسوا التجربة اثراء للتقارب وبناء الوحدة الوطنية التي طال الشوق اليها واستطال انتظارها.

ان مؤلف هذا الكتاب معلم شمالي مرموق ، ويكفي انه صعد ليصبح عميدا لمعهد تدريب المعلمين في بحر الغزال ، وهو معهد اعلي درجة من المدارس الثانوية العامة ، وهو لم يتخطي عامه الثلاثين الا بسنة واحدة. صحيح ان الكاتب يحدثنا عن منطقة واحدة من مناطق الجنوب ، وفي محيط واحد هو محيط التعليم وما يتصل به ، ولكنه يقدم عصارة تجاربه بعمق مبسط وباسلوب سلس يمتع القاريء وينتقل به (حسا) للعيش وسط الدينكا في افراحهم واتراحهم .. في جدهم وفي هزلهم .. وفي نبلهم التقليدي المتوارث .. ثم انه يبدع وهو يصف جمال

الطبيعة البكر في ذلك الجزء من الوطن .. استوقفتني عبارات كثيرة في وصفه هذا منها قوله عن المطر الذي لا يتوقف ليل نهار "وكأن السماء ام رؤوم تطعم وليدها الارض من ثديها بانتظام .. الخ"

ان المعلمين ومؤلفنا واحد من طلائعهم ، كانوا خير رسل للشمال في الجنوب فهم الذين ادوا الواجب المقدس في القري بين الادغال والاحراش ووسط مجتمعات ما الفوها من قبل ، وهم الذين كانوا الترياق المضاد لما بذره المبشرون ، مخالب القوي الاستعمارية من البغضاء والكراهية ضد الشمال والشماليين .. ذلكم كان وسيظل هو الواجب الوطني الذي يجعل عون من يعلم لمن لا يعلم امرا مقدما علي كل واجب .. ولو تنبه القادة السياسيون منذ الاستقلال ، وحتى قبيل تحقيقه ، الي اهمية دور المعلمين الذين يوفدون للجنوب ، والانتقاء الجيد في اختيارهم لكان ذلك لبنة من لبنات الوحدة الوطنية، ولما وصلت الفرقة والتنافر الي ما وصلت اليه الان.

ولهذا كله فان ما يقدمه الاستاذ هلال من جهد صادق سيظل ، رغم كل الظروف ، اسهاما مقدرا في سبيل التعارف والالفة والتقارب بين ابناء الشمال وابناء الجنوب.

محجوب عثمان

القاهرة 2001/5/10

مقدمة المؤلف

في حياة كل انسان منا لحظات واحداث صغيرة او كبيرة تظل ملتصقة بجدار الذاكرة لصوق الجلد بالبدن لا تتمحي ومنها ما يطيب له الخاطر من مسرة ومتعة في تذكره ومنها ما يجلب الكدر والضيق وكأنها حدثت لتوها ومهما كان من اثر مفرح او اثر محزن تهيجه فانها تحدث في المرء هزة وصحوة في الوجدان يحس معها بطعم الحياة المتغير بحلوه ومره وان الحياة قدر لا فكاك منه ولا مما كتب لك ان تلاقيه فانك ملاقيه مهما اتخذ المرء من حيطة وحذر ورتب وقدر فالامر واقع واقع ولا يجدي بعد وقوعه ندم او تحسر ولا تنفع كلمة لو او اذا، والحصيلة ذكري مؤرقة في ذات الهنيهة فرحا او حزنا ثم تكتسحها رياح النسيان وتطويها في عالم الغيب وتسير الحياة كالنهر في مجراه يظل سائرا مهما اعترضه من صخور وجنادل فيفيض بالخير للارض والناس والحيوان وربما يعود فيضه عليهم بالخراب والدمار .. وهكذا الحياة يوم لك ويوم عليك.

وجاء امر النقل لصاحبنا الي جنوب البلاد مديرا لاحد معاهدها التعليمية وجاءت مع النقل ترقية او ترفيع يفيد منه ماديا ومعنويا واجتماعيا وماجت نفس صاحبنا بمشاعر شتي متباينة وبأمشاج من الافكار تجاذبته ما بين الاقبال والصدود والرغبة والرهبة والتشوق والخشية ، فانه كان يود منذ زمن بعيد ان يعمل في جنوب البلاد وربما كان لما سمعه من والده من حكايات عنه

وكان قد عمل زمانا طويلا هناك اثر في رغبته تلك وربما كان لما يعتمل في صدره من نفور من الظلم وحب للبشر دون تمييز من عرق او لون او دين اثر اخر، وكان لا يعرف لشمالي علي جنوبي فضلا وان الخالق لا يميز بين الناس بالوانهم ولكن باعمالهم وتقواهم وان هذه الالوان نفسها باختلافها آية من ايات الله وانه لا يظلم احدا ولكن البشر يظلمون انفسهم وبعضهم بعضا وربما كان لما سمعه عن تلك الانحاء من جمال ونماء وخضرة حباها به الخالق اثر ايضا. اذن كان صاحبنا بلا عقد عرقية ، اما خشيته فكانت مما يسمعه من احاديث عن فوران تحت السطح ضد الشماليين ربما ينفجر بركانا لا يبقي ولا يذر كما حدث في الماضي في تمرد 1955 وان البركان حين ينفجر لا يعرف برا ولا فاجرا ولا صديقا ولا عدوا وتجرف حممه امامه كل شيء .. كل شيء .. وفي ذلك التمرد ازهقت ارواح بريئة كان كل جرمها ان اصحابها شماليون وهكذا كان تمرد 1955. ولم يكن صاحبنا يخاف الموت فهو مؤمن بان لكل اجل كتاب ولكن لا يري داع ولا معني للموت دون سبب او قضية او كما يقول اخواننا الجنوبيون (موتوا سمبلا) او كما يقوله الشماليون (مات فطيس).

وقال في نفسه مرددا الاية (قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا) وتوكل علي الله وحزم امتعته واستقل الطائرة الي مدينة واو حاضرة مديرية بحر الغزال ومن هناك يواصل سفره بالعربة

الي مدينة التونج حيث مقر عمله الجديد وهناك سيبدأ فصل جديد في كتاب حياته.

الفصل الاول

كانت الطائرة كلما اوغلت في رحلتها جنوبا تركت وراءها سماء صافية يرصعها قطع السحاب الرمادية هنا وهناك كرقع في ثوب ابيض وتتبدل قطع الغيوم الي محافل وجحافل من الغيمات السوداء والداكنة اللون تزحم بعضها البعض وتجري الفافا اثر اخري لتلحقها وكأنها فريقي كرة قدم يبغي كل منهما ان ينال الكرة ويستحوذ عليها والطائرة كالكرة في هذا الميدان الفسيح اللانهائي في الافق يتلاعب بها الهواء والسحاب بلعبات خشنة تهبط معها فجأة ثم تعتدل او تميل من جانب الي آخر كشارب اسكرته الراح ويزيد الامر سوءا هدير للرعد يشق الاجواء فيبعث الرعب في النفوس، وتضئ لافتة (اربط الحزام) ويتلفت الركاب تكسو وجوههم تساؤلات وحيرة ممزوجة بالخوف ويستنجد البعض بالمضيف الذي يطمئنهم فان الامر لا يعدو من ان يكون جيوبا هوائية ولا خوف علي الطائرة وستجتازها بسلام، وتطمئن القلوب الي حين ثم تفزع ثانية عندما تقع الطائرة في هذا الذي قال عنه المضيف (جيب هوائي) والكل يعرف المطبات او (الدقداق) والحفر الصغيرة او الكبيرة في الطرق علي اليابسة في مدننا بل في عاصمتنا وما كان يدور بخلد احدنا ان يجد لها شبيها في الجو، واستبطأ كل واحد طيران الطائرة وود لو انتهت الرحلة في غمضة عين وانتباهتها ولو

كان السفر علي اليابسة لنزل منها الركاب في اول محطة تتوقف فيها، ولكن هنا لا مفر ولابد من السكون والصبر الي نهاية الرحلة واذ هم في هذه المحنة التي تراءت لهم جاء صوت قائد الطائرة باننا بسبيل الهبوط في مطار واو والتنبيه بالامتناع عن التدخين وربط الاحزمة والتي كانت اصلا مربوطة منذ أن دخلت الطائرة في لعبة جيوب الهواء ومطبات الجو واقتربت رويدا رويدا من الارض التي لم نر منها من نافذة الطائرة سوي اجمة كثيفة من الاشجار في فضاء رمادي اللون ثم ظهر شريط ممهد من الارض وهبطت الطائرة ولمست اطاراتها ممر الهبوط في قفزات قصيرة ثم اعتدلت وسارت قليلا ثم وقفت وحمد الركاب السلامة لبعضهم البعض وفتح باب الطائرة ونزل الركاب وكان هناك جمع كبير من المسئولين والمستقبلين ويبدو ان مجيء الطائرة يشكل حدثا هاما هنا يكسر رتابة الحياة ويجلب معه وجوها جديدة والصحف والخطابات واخبار الخرطوم. ووجد صاحبنا مفتش تعليم المديرية واعوانه ومن بينهم صديق قديم له في استقباله، وكان استقبالا حارا سرت له نفس صاحبنا وكأنها بشارة لما سيلاقيه من مستقبل ايامه في هذا المكان الجديد واخبره المفتش باختصار عن مهامه وعن البلدة التي سيعمل بها واخبره ايضا ان عربة المعهد في انتظاره لتأخذه الي مقر عمله الجديد، ولكن قبل ذلك دعاهم صديقه بأن يذهب الجميع معه الي داره لتناول طعام الغداءولفت نظر

صاحبنا الخضرة الكاسية في كل مكان ومنازل الموظفين الانيقة ذات الحدائق الجميلة ونظافة البلدة وكأنها غسلت بالماء والصابون والسماء الحبلي بالسحب الداكنة كأنها برمتها بانوراما من الحسن والالوان ، وفي منزل الصديق القديم اجتمع المفتش ومساعدوه بالمكتب علي مائدة الغداء الذي كان فخما وقوامه نبيحة اعدت خصيصا للضيف الوافد كما هي عادة السودانيين، وتشققت الاحاديث وكان معظمها تساؤلات من جانبهم عن الحياة واطوارها وحوادثها في العاصمة وكان هو يسأل عن التونج وعن المعهد وعن الامن فطمأنوه ما وسعهم ذلك فهدأ باله واستراح بلباله، وبعد العصر تأذن للسفر فشيعوه هو وزوجته الي ان تحركت العربة من امام الدار وسارت العربة قليلا ثم وصلت الي مشرع النهر "المعدية" لان واو يفصلها عن الطريق المؤدي الي التونج نهر يدعي نهر الجور والمعدية بدائية فهي مسطح كبير من الحديد كالطوف مربوطة من الجانبين بجنازير علي بكرات ويقوم شخصان بسحب الجنزير فتندفع المعدية الي الامام في حركة بطيئة حتي تصل الي الشط الاخر ويقوم بهذه المهمة المسجونين، وتستوعب المعدية في جوفها سيارتين واعدادا من الناس.

وخرجو الي الشاطيء وما ان بدأت السيارة في المسير حتي نزل المطر بغزارة والطريق هو ممر بعرض العربة بقليل وسط غابة كثيفة وحشائش طويلة لا تكاد تري ما وراءها، ولأول مرة

في حياته يري صاحبنا مثل هذه الاشجار الباسقة التي تكاد تعانق السحاب، وسأل السائق عنها فاعلمه انها اشجار التيك وبعضها اشجار الابنوس والمهوقني وهي اشجار يصنع من اخشابها الاثاث الفاخر الثمين ، وفجأة انزلقت العربة وتقاطعت واصبحت مقدمتها ومؤخرتها بعرض الطريق ، وانزعج صاحبنا وقال للسائق بلا وعي (حاسب ، حاسب) فاجابه مبتسما والله يا جنابه مرات ورا بتاعه – العربية – يجي قدام وقدام بتاعه يجي ورا) يعني يحدث مرات ان تكون مقدمة العربة في الخلف وان تكون مؤخرتها الي الامام، وقال انه لا خوف من انقلاب العربة وحقيقة كان ذلك السائق الذي اخبره عن اسمه وهو (لاكي) ماهرا الي جانب كونه نظيفا ومؤدبا وسيتعامل صاحبنا معه كل يوم في مقبل الايام ، وسارت الرحلة في جو من الامطار تغزر احيانا وتقل احيانا اخري الي رذاذ حتي وصلوا البلدة بعد المغرب وشقت العربة طريقها وسط الشارع الرئيسي الذي يشق سوق البلدة وتقع علي جانب منه الدكاكين ووجدها جميعا مقفلة وبدأ النهار يتراجع وبدأ الليل يغشي الارض ويغطيها بثوبه الاسود ولا يشاهد ضوء في اي مكان ، ولما سأل السائق عن السبب في اقفال السوق مبكرا وكان عهده بالاسواق في المدن تقفل بعد الثامنة او التاسعة ليلا ، فقال لاكي ان السوق بل الحياة هنا تنتهي قبل المغرب وتقفل الحوانيت ويقفل كل الناس راجعين الي دورهم ، وتجاذب صاحبنا حوارات داخلية مع نفسه، هذه اذا

حياة مسئمة فاترة ينام الناس فيها كالدجاج حين يقبل المساء وهل تستطيع ان تطيق هذه الحياة المملة؟ ولم لا وقد سبق لك ان عملت في مدن صغيرة اخري حالها مثل حال هذه البلدة وتعودت علي مثل هذه الظروف .. نعم ان المسألة مسألة تأقلم وتعود ، وقد كنت حينذاك اعزبا وحيدا وها انت الان مع زوجة تؤنس وحشتك وتبدد وحدتك ، لا بأس ففعلا وجود الزوجة عامل جديد مساعد الي حد كبير وبخاصة انه يربط بينكما المودة والرحمة والحب .. ودخلت العربة في ممر طويل تحفه الاشجار من الجانبين والتي تبين في الصباح انها اشجار فاكهة المنقة (المانجو) ووقفت العربة امام باب منزل كبير كالسراي تبين انه منزل عميد المعهد ، واستقبله عند الباب نائبا عميد المعهد بحفاوة السودانيين المعهودة ، ودعاهما نائب العميد ليتناولا طعام العشاء في منزله القريب والح عليهما ان يبيتا الليلة حتي الصباح ولكن صاحبنا اعتذر والح علي الذهاب الي داره والمبيت فيه، وهناك وجد انهم هيأوا لهم سريرين واشياء اخري ضرورية وذلك الي ان يصل عفشه من واو والذي شحنه في القطار قبل سفره، ونام ليلته تلك كالقتيل وكأنه لم ينم ابدا قبل ذلك.

الفصل الثاني

جاءه في مرقده صوت شقشقة عصافير مغردة اذهبت الكري بلطف عن عينيه المغمضتين فهب من نومه وفتح النافذة العريضة فاقتحم الضوء الذي كان منتظرا بالخارج الغرفة وولج معه الحان الطيور المغردة فاشاعت الحياة والنشاط في جو الحجرة ووقع بصره اول ما وقع علي خميلة من الاشجار المورقة الفائقة الخضرة بها ورود مزهرة يتلألأ علي هاماتها واوراقها جميعا بلورات شفافة من الندي ويهزها وكأنها من طرب نسيم واني فتميل من جانب الي اخر مبتهجة بنور النهار وامتلأت روحه قبل جسده بفيض من النشاط واللذة الخفية وشرع يكتشف المنزل الواسع الجميل وهو علي نمط جميع منازل الانجليز عندما كانوا يحكمون السودان يحتل مساحة واسعة من الارض وتحيط به حديقة غناء تبلغ الفدان والحق ان هؤلاء الناس لهم ذوق رفيع في انشاء وتنسيق الحدائق ولا يخلو اي بيت منها وتضم انواعا شتي من اشجار الظل والفواكه والازاهير والورود واكتشف فيما بعد ان بالمنزل نحو ثلاثين شجرة من المانجو ذات الظل الظليل والثمار المترعة الي جانب اشجار الجوافة واللارنج والقشطة والتوت والباباي والثلاث الاخيرات يراهم لأول مرة في حياته ، والمنزل به حجرتان واسعتان للنوم ملحق بهما حمام وصالون للجلوس طويل وواسع

المساحة وملحق بهذا البناء الرئيسي حجرة ثانية تفضي الي ممر مسقوف يقع في اخره المطبخ وله باب يفتح علي الخارج حيث هناك حجرة وقطية للنوم ويوجد جراج في واجهة المنزل ، ويحيط بالمنزل من جميع جوانبه برندات تغطي جوانبها (نمليات) من السلك اتقاء البعوض والناموس والحشرات الطائرة وللمنزل ثلاث مداخل رئيسية وعلي كل مدخل بابان واحد يليه الاخر مغطاة بالسلك وقاية من الناموس ، وهناك في الفناء خارج المنزل بئر ماء للشرب ولري الحديقة ويطلقون علي هذا المنزل بيت العميد – اي عميد مركز تدريب المعلمين – والبيت مبني علي مرتفع من الارض كالهضبة يشرف علي (توج) وهو مساحة واسعة من الحشائش الطويلة داخل الماء والمنزل يقع بعيدا نسبيا من منازل المدرسين وتحوطه الاشجار والنباتات من جميع الجهات. وقال صاحبنا في نفسه وهو منبهر "هل كان الانجليز يعدون كل هذا العمار ويعيشون في كل هذا الترف يظنون انهم سيعيشون ابدا في هذا النعيم؟" وهنا قفزت الي ذهنه النهاية المأساوية لمدرس الاحياء الانجليزي في مدرسة وادي سيدنا الثانوية واظن ان اسمه مستر (لق) Lege فعندما سودنت وظائف الانجليز بسودانيين رجع الي بلده وسكن في عربة (كرفان) Caravan ولم يجد عملا وساءت حاله وصارت الدنيا سوداء في عينيه وبلغ به اليأس مبلغه وفي لحظة بؤس ونحس اطلق النار علي اولاده وزوجته ثم علي نفسه وماتوا جميعهم!

وذهب صاحبنا الي مكتبه في الصباح الباكر وهو قريب من المنزل شأن كل المدارس والمعاهد في الاقاليم حيث تبني منازل المدرسين بجانب المدرسة او المعهد وهناك استقبله اول ما استقبله من العاملين كاتب المركز وهو شاب دينكاوي بشوش اسمه لوكا وخبر فيه فيما بعد المقدرة والكفاءة والنشاط ، ثم توافد المدرسون لتحيته وكلهم من الشماليين عدا واحداً من ابناء الدينكا، ثم جاء العمال كالطباخين ومساعديهم. والفراشين والخفراء واخرين وكان الكاتب يقوم بالترجمة من لغة الدينكا الي اللغة العربية والعكس وما زال صاحبنا يذكر ان رئيس الطباخين عندما صافحه التفت الي الكاتب وقال له (عميد فرفوري) وصمت الكاتب لحظة وسأله العميد عما قاله الرجل فاجاب (قال عميد صغير السن) ، وابتسم صاحبنا فقد كان في الواحدة والثلاثين من عمره حينئذ، وبعد ان فرغ من استقبال العاملين خرج ليتفقد المركز او المعهد والذي سيكون تحت مسئوليته وصحبه نائبه الذي امضي بالمركز بضع سنوات وانشيء المركز ليتعلم فيه المدرسات والمدرسون الجنوبيون اللغة العربية ويتدربون فيه ايضا علي التدريس باللغة العربية في المرحلة الاولية وكانت مدة الدراسة اربع سنوات يوفد بعدها المدرس الي الشمال ليعمل في احد مدارسه لمدة سنتين ثم يرجع للجنوب ، وكان يقوم بالتدريس بالمركز نخبة من نظار المدارس الاولية المتميزين من الشماليين ويحتل المعهد مساحة شاسعة

من الارض وتضم ابنيته مبني الادارة وقاعات الدراسة وداخليات الطلبة المدرسين ومنازل هيئة التدريس وملحقة به مدرسة اولية بها داخلية لتدريب الطلبة المدرسين وهناك مبان عديدة متنوعة وكان للمعهد عربة ، وكان المعهد يستقبل المدرسين والمدرسات من مديريات الجنوب الثلاث (اعالي النيل وبحر الغزال والاستوائية) حيث يكون في المعهد اربع فرق في كل مرة. ولاحظ صاحبنا ان جل اعضاء هيئة التدريس من مديرية كردفان ولعل ذلك راجع الي قرب هذه المديرية من الجنوب ، وكان يشعر بشيء من التهيب ازاء هذه المسئولية الكبيرة فقد كانت خبرته قبل ذلك لا تتعدي ادارة مدارس في المرحلة المتوسطة وهي متوسطة في حجمها من حيث اعداد التلاميذ الصبية والمدرسين ، ولكن هنا الطلبة من المدرسين الراشدين ذوي الخبرات وعديد السنين في التدريس، وكذلك هيئة التدريس تضم نظار المدارس الاولية ذوي الخبرة والتجربة والسن .. انهم جيش صغير من المدرسين والمتدربين والعاملين والتلاميذ ، فهل سينجح صاحبنا في اجتياز التجربة الجديدة بسلام؟ او بمعني آخر بنجاح؟ قال: نعم ، ولن يخيب ظن رؤسائه في الخرطوم الذين رقوه واختاروه لهذا المنصب وقبل ذلك لن يخيب ظن نفسه لنفسه، فهو قد جاء الي هنا بيقين ثابت ووطن نفسه علي ان يعطي من قدرته وطاقته اقصي ما يستطيع، الم يكن ايمانه دوما ان الوطن واحد وبنيه سواسية

حيث كان وجودهم شمالا ام جنوبا شرقا او غربا وربما انحاز شعورا نحو الجنوب في اداء رسالته احساسا منه لما لحقه من ظلم اكثر من بقية القطر في عهد الاستعمار .. وبهذا الفهم وهذا الايمان وهذا التصميم بدأ عمله في الجنوب .. ولا يدري والا قفزت في خاطره او ذاكرته هذه الابيات للمتنبي الذي يحبه كثيرا وهي:

علي قدر اهل العزم تأتي العزائم

وتأتي علي قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها

وتصغر في عين العظيم العظائم

القضية الاولي

نقب صاحبنا في الملفات القديمة للمعهد واطلع علي الكتب والمناهج التي كانت تدرس فيه فوجد من بينها كتيب للديانة المسيحية للمذهب الكاثوليكي قرأ فيه واستوقفته عبارة (ان القسس الكاثوليك بعثهم الله لهداية البشر وهم الصلة بين الانسان والرب ولذلك تجب طاعتهم طاعة عمياء فيما يقولون ويشيرون به في امور الدنيا والدين .. استوقفته هذه العبارة طويلا ووجد تفسيرا للعداوة والبغض الذي يكنه المتعلمون الجنوبيون الذين تلقوا العلم في هذه المدارس للشماليين فقد شحن القسس افئدتهم وصدورهم ضد العرب الشماليين واستثمروا في ذلك ظلامات بعيدة اقترفها الشماليون نحو الجنوبيين في تجارة الرق في عهود الظلام وظلم الانسان لاخيه الانسان في كثير من انحاء العالم ووجد ايضا كتيبات مصورة يظهر فيها الجنوبيون مقيدين من ايديهم واعناقهم بالسلاسل وتاجر رقيق يلهب ظهورهم العارية بالسوط وهذا المسلك فسر له ايضا ما صاحب انفجار التمرد في عام 1955 من مجازر وممارسات بشعة ضد الشماليين فقد كان للقسس او بعضهم دور رئيسي في التهييج والتحريض ضد الشماليين مما اثبتته الوقائع في المحاكمات التي تلت اخماد التمرد. وكما ذكر قبلا ان المعهد ملحق به مدرسة اولية للاولاد يتدرب فيها الطلبة المدرسون وتحديدا طلاب السنة

النهائية تحت اشراف مدرسيهم، وكان يقبل لهذه المدرسة دفعة جديدة من الاولاد في كل اول عام دراسي وكانت لجنة القبول تتكون من عميد المعهد وضابط المجلس الريفي الجنوبي وطبيب المستشفي وسلطان البلدة ومعهم كاتب المركز ليقوم بالترجمة وكـان كل والد أو ولى امـر يـأتى بابنـه ليـقـابـل اللجنـة وكـان معظمهم يأتون من بطون الغابات ومن مسافات بعيدة مستصحبين ابناءهم والاولاد عرايا كما ولدتهم امهاتهم وقد يكون الوالد مرتديا ما يستر العورة وحسب، وهذا ان دل علي شيء فانما يدل علي تعطش هؤلاء الناس للتعليم رغم بدائيتهم وتخلفهم ولما كان الوقت موعد قبول التلاميذ الجدد في اول العام فقد وجه صاحبنا الدعوة لاعضاء اللجنة المذكورين انفا للاجتماع في التاريخ المعين وقد استرعي انتباهه استمارة معدة لكل تلميذ جديد كان اهم بنودها هو خانة الديانة فهذه مقسمة الي اربع خانات هكذا (مسلم-مسيحي وتحتها كاثوليكي/بروتستانت-ثم خانة لا ديني) وعلم صاحبنا ان اخطر شيء في الاستمارة هي خانة الديانة وبعد ان تستوفي كل البيانات يوقع عليها جميع اعضاء اللجنة، وكان والد الطفل او ولي امره عندما يمثل امام اللجنة يسأله العميد عن الديانة التي يريدها لابنه وبالطبع فانه لا يعرف هذه التقسيمات الطائفية المسيحية ولكن يجيب بأنه يريد دين (ابونا زيزيولا) وهذا هو القس الكاثوليكي او يقول اريد دين ابونا (مارتن) وهذا هو القس البروتستانتي او يختار الاسلام او

يقول اتركوه بدون دين ويثبت هذا في الاستمارة ، ولاحقا في الدراسة عندما تأتي حصة الدين فان الاولاد المسيحيين يدرسهم القس الكاثوليكي في حجرة منفصلة وكذلك القس البروتستانت ويدرس المدرس الشمالي الاطفال المسلمين ، واما الذين لا دين لهم فيعطونهم كرة قدم يلعبون بها الي حين انتهاء حصة الدين والتئام الفصل مرة اخري بقية اليوم الدراسي.

حدثت حادثة صغيرة اثناء معاينة اللجنة للتلاميذ الجدد ما زالت عالقة بذهن صاحبنا حية كأنها حدثت بالامس بما لها من مدلول عقلاني فلسفي واقعي وذلك عندما سئل والد احد الاطفال عن الديانة التي يود لابنه ان يتعلمها في المدرسة فاجاب (هذا الولد صغير ولا يعرف شيئا وانا لا اريد ان افرض عليه اي دين ولكني اتركه عندما يكبر ويتعلم ويفهم وعند ذاك يختار الدين الذي يريده) ، وهنا جالت بذهن صاحبنا شتي المفاهيم والقيم مثل حرية العقيدة وحرية الاقتناع و.. و.. من الحريات التي قننها الانسان ونصت عليها دساتير الامم الحديثة .. السنا مسلمين او مسيحيين بالوراثة؟ اكان اذا ولدت لابوين يهوديين او مسيحيين لا اكون مثلهما؟ فكل انسان يولد علي الفطرة ولكن والداه يهودانه او يمجسانه .. واكبر في نفسه هذا القول من رجل بدائي اتي من الغابة له مثل هذا التفكير المستنير! الم يحكم لنا ربنا سبحانه وتعالي في كتابة الكريم حرية الاعتقاد بقوله (لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي)؟ ومثل امام اللجنة رجل

شمالي بسيط لديه (طبلية) في السوق يبيع فيها اشياء رخيصة ولكنه كان اماما يؤم المصلين وكان خيّرا يأوي اليه ويتبني الاطفال اليتامي، مثل امام اللجنة ومعه ثلاثة اطفال وسألت اللجنة كل واحد من الاطفال عن الديانة التي يريدها وكلهم اجابوا بانهم يريدون الاسلام وزاد احدهم بقوله ان والده وهو علي فراش الموت قال له انك مسلم . واثبت ذلك في استمارة كل منهم .. وانفضت اللجنة بعد ان فرغت من مهمتها ووضعوا توقيعاتهم علي جميع الاستمارات .. وعلم العميد ان سلطان البلدة عضو اللجنة وهو من قبيلة الجور وهي من اكبر القبائل في البلدة ان لم تكن اكبرها علي الاطلاق وللقبيلة حس ومقدرة فنية راقية تتمثل فيما ينحتونه من الخشب من تماثيل رائعة للحيوانات ومن اثاثات جميلة .. هذا السلطان له اربعة من الولد احدهم مسيحي كاثوليكي والثاني مسيحي بروتستانت والثالث مسلم والرابع لا يدين بدين والرجل نفسه لا دين له ولكنهم رغم ذلك يعيشون معا في بيت واحد في وئام وسلام .. هل هناك مثل للحرية الدينية وحرية الاعتقاد ابلغ من ذلك؟ .. وفي غداة اليوم التالي لانعقاد لجنة القبول ذهب العميد الي مكتبه ووجد موضوعا عليه خطاب باللغة الانجليزية من قس الكنيسة الكاثوليكية اتسم بالحدة وخارج علي حدود اللياقة متهما العميد بانه يتعمد اسلمة ابناء الكنيسة وتغيير ديانتهم من المسيحية الي الاسلام وضرب مثلا بذلك الولد الذي اتي به الشيخ الشمالي

والذي قال امام اللجنة ان والده اوصاه قبل مماته بأنه مسلم، وقال القس ان ذلك الولد قام هو بتعميده مسيحيا قبل ذلك. واجتاح المدير غضب ومرارة لهذا الاتهام الجائر ولم يتمالك نفسه وكتب ردا بليغا بعيدا عن الانفعال فند فيه اتهام القس واستشهد باعضاء اللجنة وهم علي أعلي مستوي تمثيلي مهني في البلدة ففيهم ممثل الحكومة وهو ضابط المجلس الريفي وفوق ذلك فهو جنوبي ومسيحي وفيهم سلطان البلدة ذاته ، واخبره انه ما كان يجوز له ان يخاطبه بهذه اللهجة المستقبحة او ان يخاطبه اصلا .. وكلف العميد الكاتب بأن يكتب علي الالة الكاتبة عدة نسخ من هذا الخطاب ومن خطاب القس ليرسل صورا منها الي مفتش الحكومة المحلية بالتونج وضابط المجلس الريفي وكل اعضاء اللجنة وصورة الي الحاكم العسكري بمدينة واو وكذلك لمفتش التعليم .. ومرت ثلاثة ايام علي هذه الحادثة وفي اليوم الرابع وكان يوم جمعة وقفت سيارة امام مدخل بيت العميد وترجل منها رجلان وصفق احدهما بيديه مستئذنا وخرج اليهما فعرف احدهما وكان هو القس الكاثوليكي الايطالي الاب زيزيولا صاحب الخطاب والاخر رجل جنوبي ضخم الجثة مهيب الطلعة يرتدي نظارة طبية فوق عينيه ويرتدي مسوح القسس ولكنه رداء مميز ولبس علي رأسه قلنسوة ودعاهما للدخول وبعد التحيات واداء واجب الضيافة تكلم القس الجنوبي الكبير معرفا بنفسه فهو مطران الكنيسة الكاثوليكية في بحر

الغزال اي انه صاحب اكبر منصب ديني وقال ان الحاكم العسكري اتصل به واخبره بما حصل من الاب زيزيولا ولهذا السبب فانه اتي من واو خصيصا واصطحبه معه ليعتذر له امامه عما بدر منه وكان الرجل يتكلم بعربية عامية فصيحة، وقال للعميد ان الاب زيزيولا ارعن (هكذا) وما كان له ان يخاطبك وبذلك الاسلوب والتفت الي القس وقال له بصوت جاف(اعتذر للعميد) ، واحمر وجه القس وصار كدم الذبيحة واكتسي وجهه مزيج من الغيظ والمهانة والخضوع وتمتم الرجل بكلمات الاعتذار ويخيل للرائي انه يوشك ان ينفجر من الغيظ ، وهنا تدخل العميد محاولا ان يخفف من حرج الموقف ويطيب خاطر القس فقال للمطران "اننا بشر وكلنا خطاؤون ولكن خير الخطائين التوابون" كما قال نبينا صلي الله عليه وسلم وشكره علي تكبده المشاق والسفر من واو اليه، وهنا استأذن المطران وقال انه راجع من فوره اي واو ، وشيعهما العميد الي مدخل الدار مكررا كلمات الشكر. وعلم العميد بعدئذ ان الحاكم العسكري عندما اطلع علي صور الخطابين اتصل فورا بالتلفون بالمطران وامره ان يصطحب القس ويذهب معه بنفسه الي العميد في منزله بالتونج ويجعله يعتذر له امامه .. وحدثت هذه الواقعة في عهد الحكم العسكري للفريق ابراهيم عبود في عام 1963 وكان الحاكم العسكري لمديرية بحر الغزال آنذاك هو العميد احمد حسن سالم الشهير ب(ازرق).

نهر وامطار

تقع مدينة التونج الصغيرة علي ضفة نهر الجور وهو احد النهيرات الرافدة للنيل والبلدة نفسها عبارة عن هضبة يقع النهر علي حافتها ويحدها من جانب مستنقعات واحراش من الحشائش الطويلة تدعي (التوج) ويحفها من جوانبها الاخري غابة كثيفة من الاشجار والحشائش الطويلة ويطلقون عليها اسم (العقبة) وتربة الارض لا هي بالطينية ولا الرملية ولكنها مكونة من ذرات كبيرة كالحصباء مختلطة بما يشبه الرمل والتراب وتسمي هذه التربة (عزازة) ولذلك عندما تصب الامطارلا يكون هناك طين او وحل يعيق السير ويلطخ الاحذية ونسبة لعلو الارض كالهضبة فان مياه الامطار لا تكون بحيرات صغيرة وانما تجري وتصب في التوج. والامطار هنا تهطل اشهراً عديدة وبكميات عظيمة ولكنها لا تحول دون نشاط الناس في سعيهم للعيش وضربهم في الارض من اجل الرزق. ويكاد المطر ينزل في مواعيد معلومة ففي الصباح يهطل رذاذا ثم يتوقف ثم يصب وابلا في منتصف النهار لمدة ساعة من الزمن ويتوقف كأن السماء ام رؤوم تطعم وليدها الارض من ثديها في فترات لتشبعه ، واما في الليل فان المطر يظل منهمرا في اسراف حتي توشك الارض ان تقول كفي فقد بشمت وما تفني المياه! ورحم الارض طيب معطاء ينبت من كل زوج بهيج من الزرع ويخيل

الي المرء أنه اذا زرع احدهم عودا جافا اليوم لاصبح في الغداة اخضرا مورقا .. ان فضاء الارض هنا كقطعة الفسيفساء بالوانها الزاهية من الازاهر والوردود البرية النضرة ذات الالوان الطيفية والاشجار بأوراقها الزاهية الخضرة تكاد تعانق عنان السماء وهناك فوق الشجر الطيور الصداحة من كل شكل ولون فهناك البيغاوات الملونة والعصافير الصغيرة ذات الالوان الزاهية وكلها مغردة فتسمع الحانا عذبة من شقشقة تولف فيما بينها سيمفونية لحنية خلابة للب تحرك الابداع في النفس الشاعرة وتملأ القلب بحب الحياة .. واما نهر الجور الصغير ففيه الرحمة وفيه العذاب ولكن لا بيده الاذي .. فهو يحتوي في باطنه ازواجا من كل سمك شهي كالعجل والبياض والبلطي وتراه منسابا مختالا في جريانه ولكن كدر شاطئيه نوع مؤذ من الذباب ينقل جرثومة لئيمة تسبب العمي للانسان وسمي بعمي الجور لانه اول ما اكتشفت هذه الذبابة اكتشفت علي ضفاف هذا النهر فسمي مرض العمي باسم هذا النهر الهاديء البريء وتري المصابين بهذا المرض اعينهم مفتوحة كالاصحاء ولكنها عمياء ، والان هناك حملة دولية تشرف عليها منظمة الصحة العالمية لاستئصال هذا المرض اللعين وسموه عمي الانهار واظنه منتشر في اقطار اخري غير السودان. والماء في الجنوب هبة الله العظيمة من السماء للارض فالارض مبتلة من فوقها ومن تحتها والمطر لا يعطل نشاط الانسان وهناك اول شيء

يقتنيه المرء الوافد من الشمال هو معطف واق من المطر وبطارية Torch لينير بها الواحد طريقه في الليل او داخل المنزل اذا اضطر للقيام لبعض شأنه ليلا والمعطف الواقي من المطر والبطارية من الاساسيات التي لا غني عنها فالبلدة ليست بها كهرباء والظلام المكثف بالاشجار يكسو كل شيء ولكي يتفادي الواحد ما يلاقيه من هوام الليل ومنها الزواحف كالثعابين وهذه منتشرة بكثرة هناك ومنها القاتل ذو السم الزعاف الذي ينقل الملدوغ الي القبر فورا . ولصاحبنا تجربة مخيفة مع الثعابين في طفولته تجعله يخاف منها الي الان وذلك عندما كان مع والديه في مدينة القضارف بشرق السودان حيث كان مقر عمل والده حينذاك ولذلك في ذات يوم عندما رأي ثعبانا اخضر ارقط متعلقا بباب النملية المؤدي الي الملحق والمطبخ نادي بأعلي صوته علي الطباخ (يا سبت جيب عصاية وتعال بسرعة في دبيب هنا) وحضر الطباخ جاريا ومعه عصا غليظة واشار له علي الثعبان ليقتله ، وضحك سبت وقال (يا جنابو دا بتاع خدار ساكت ما يعمل حاجة) فامره بقتله قائلا(بتاع خضار بتاع سجم اقتله بس!)

اما الخطر الاخر فهو الناموس المسبب للملاريا القاتلة ولذلك نجد كل البيوت هنا محاطة بنملية من السلك وكذلك الابواب والشبابيك وتجد بابين مغطيان بالسلك في مدخل كل بيت، يدخل الواحد من الباب الاول ويقفله ويسير في مدخل مغطي بالسلك

من الجانبين الي الباب الثاني ويدخل منه ويقفله ومن ثم يدخل المنزل وذلك احترازا من دخول الناموس الي المنزل ، وهناك من يتخذون ناموسيات فوق الاسرة زيادة في الوقاية ، والملاريا هنا متوطنة وهناك جهود دولية بقيادة منظمة الصحة العالمية للقضاء عليها،وقد عقد مؤتمر دولي من رؤساء الدول المبتلاة بهذا الداء لمكافحته. وكان الموظفون الشماليون عندما ينقلون للعمل في الجنوب في الخمسينات والستينات من القرن الماضي يتعللون بشتي المعاذير لالغاء النقل وذلك بسبب تخوفهم من الاصابة بالملاريا وكان الواحد منهم يقول (عاوزني امشي الجنوب عشان اموت هناك بالملاريا) ولكن جاء زمن ونحن في اواخر القرن العشرين وحتي الان في القرن الحادي والعشرين صارت فيه الملاريا متوطنة في الشمال ليس ذلك وحسب بل صارت العاصمة القومية مباءة للملاريا وصار ضحاياها الذين لاقوا ويلاقون حتفهم بالالاف! ولكن الله سلم فلم يصب صاحبنا ولا زوجه بالملاريا طيلة اقامتهما هناك لانهما كانا يتعاطيات حبوبا في كل يوم حبتين للوقاية من الملاريا.

ايام العمل

كان عمل العميد اداريا بالدرجة الاولي ولكن كان لديه حصة في الاسبوع مع الفرقة في الصف النهائي وكذلك مع الطالبات المدرسات وكانت الحصص اقرب الي الندوات منها الي المحاضرات فكان يناقش معهم المشاكل التربوية مستعينا في ذلك بعلم النفس التربوي وكذلك يزودهم بالخبرات والمعلومات عن فن التدريس مثل ادارة الفصل واثارة انتباه التلاميذ وتوجيه الاسئلة واشراك التلاميذ جميعهم في الدرس ونحو ذلك من فنون التدريس والحق انه كان يحب هذه الحصص ويجد فيها نفسه لانه كا يعشق التدريس فينطلق في شرحه وتوضيحه واجدا لذة نفسية غامرة ، واما العمل الاداري فقد استأثر بجل وقته ولكنه لم يكن يجلس علي كرسيه طيلة الوقت فقد كان دأبه منذ ان صار مسئولا ان يفرد للعمل الميداني ان صح الوصف جزءا واسعا في عمله فكان يمر ويتفقد يوميا مرافق المركز فيعاين الداخليات ويذهب الي المطبخ ويفحص كمية ونوع الخضروات واللحم والاغذية الطازجة التي يوردها متعهد الغذاءات كل يوم، ثم يقفل راجعا ليري ويتذوق الطعام بعد طهيه ويتفقد نظافة المكان والسفرة والاواني وملابس العمال، ثم ينتقل الي مزرعة المركز والي حظيرة الابقار ثم بعد ذلك يدخل فصول الدراسة ويقضي بعض الوقت مع كل مدرس وهو في كل ذلك يوجه

ويصوب ويثني ويمدح اذا دعا الحال ، وهذا المنهج الذي اختطه لنفسه وفر عليه كثيرا من متاعب ومشاكل العمل فقد كان كل شيء يسير بنظام ودقة في طريقه المرسوم، فكان كل عامل من اعلي الي ادني رتبة يعلم ان عمله مرصود من رئيسه في كل وقت فانه ليس هناك مجال للتواكل او الكسل او الاهمال والتراخي لانه اذا احسن فانه يحسن لنفسه وان اساء فعليها فمبدأ الثواب والعقاب موضوع بدون مجاملة او محاباة او ظلم.

وكان ما يأخذ الكثير من وقته في المكتب هي قضايا الطلبة المدرسين مع بعضهم البعض، وكانوا يفضلون ان يحلونها مع العميد ويرتضون حكمه علي الذهاب الي محكمة السلاطين لان هذه عقوباتها شديدة ومن ناحية اخري اذا ادين فيها الشخص فهو عرضة لعقوبة ادارية اخري قد تفقده وظيفته في التدريس ومثال ذلك قضايا الاعتداء علي الشرف.

وذات مرة دخل عليه احد العاملين وكان يدرس الخراطة علي الخشب وقال للعميد انه متظلم من استيفن وهو طالب معلم في الفرقة الرابعة وعلي حسب قول الشاكي(يا جنابو استيفن كسروا بيت بتاع انا) ولم يفهم العميد شيئا وقال له ان يوضح له الموضوع ولكنه اجاب بنرفزة (جنابك انا قلت كسروا بيت بتاع انا يعني كسروا بيت بتاع انا) وكما يقال في المثل العربي (فسر الماء بعد الجهد بالماء) وطلب منه العميد ان يفسر له هذه العبارة فاجاب بحنق وخبط بيده ما بعد سرته (جنابو هو كسرو

.. بتاع مرة بتاعي) وذكر اسم الجهاز التناسلي النسوي ..
وهنا ادرك العميد كنه الموضوع وانها جريمة اغتصاب وقال له
انه هذه جريمة كبيرة وان عليه ان يذهب للبوليس او محكمة
السلاطين ولكنه قال انه يفضل ويصر ان يفصل فيها العميد وانه
لا يريد للواقعة ان تنتشر، ووقع العميد في (حيص بيص) كما
يقولون في المثل، وطلب من الرجل ان ينتظر خارج المكتب
للحظات ونادي علي الكاتب وسأله عن نوع هذه القضايا وان
كانت قد حدثت في الماضي وماذا كان الحكم فيها لا سيما وانه
عاصر ثلاثة عمداء من قبل ، فاجابه انها حدثت مرارا في
الماضي وان اقصي ما يود الزوج المعتدي علي زوجته تعويضا
ماليا لا يتعدي الثلاث جنيهات وان الشاكي له سابقتان من هذا
القبيل اخذ عنهما تعويضا ماليا .. وطلب العميد من الكاتب ان
يحضر له استيفن وطاف بمخيلته امنية خلت في صباه وهي
دراسة القانون ليصبح محاميا او قاضيا وبالفعل قطع اول الشوط
في دراسة القانون بالتحاقه بكلية الحقوق بالسنة الاولي ولكنه
تركها مفصولا لامر يتعلق بالسياسة بل الاحري الوطنية، وها
هو القدر يضعه رغم انفه في مكان القاضي ولا دراية له
بالقانون عدا ما يمليه عليه ضميره الامين والحس السليم وتوخي
العدل ، وقال في نفسه لا بأس وهل الذين يجلسون للقضاء في
محكمة السلاطين او في المحاكم الاهلية درسوا القانون او
تخرجوا في كلية الحقوق؟ وجاء الكاتب بالمعتدي ولم يكن يبدو

عليه كثير انزعاج ولما سأله العميد لم ينكر الواقعة وقال انه مستعد لان يعوض الزوج عن فعلته، وهنا حكم عليه العميد بأن يدفع ثلاثة جنيهات للزوج بعد ان لقنه درسا في الاخلاق وخاصة فيما يجب ان يتحلي به المدرس من سلوك قويم ولكن الآثم استكثر المبلغ وصار يجادل ويقول ان المرأة هي التي راودته عن نفسه وعندئذ زجره العميد واخبره بأنه سيحيل القضية الي محكمة السلاطين وعندها تراجع الرجل القهقري مائة وثمانين درجة واخذ يستعطف العميد بأن لا يرسله الي محكمة السلاطين وانه يقبل بدفع المبلغ كله.

وربما يتساءل البعض عن تجشم العميد ما لا يخصه من قضايا واقحام نفسه في مجال القضاء ولكن هناك حقيقة وهي ان الطلبة المدرسين رغم كونهم راشدين وموظفين فانهم في حكم الطلبة ويظل المعهد مسئولا عن تصرفاتهم وسلوكهم حرصا علي سمعة المعهد وسمعة المدرسين فان المسئولين عن المعهد يعملون ما في وسعهم بأن ينأوا باخطائهم عن التداول خارج المعهد او في اروقة المحاكم ما دام هذا ميسورا ومقدورا عليه داخل اسوار المعهد ، وكذلك ينبغي ان تسود روح الاسرة الواحدة بين المسئولين والمتدربين الا من شذ من شواذ والشاذ لا حكم له. وفي مرة اخري جاءه متدرب اخر وطلب منه ان يمنحه اجازة لمدة اسبوع لامر يخصه وسأله العميد عن هذا الامر الذي يتطلب منحه اسبوعا كاملاً اجازة من عمله لان منح

الاجازات للضرورة نص عليه في لائحة معاملة الموظفين وعليه لابد من ان يبين السبب لطلب الاجازة، فاجاب بقوله(يا جنابو انا عاوز نطهر) اي اريد ان اختتن، وتبسم العميد وقال له(هذا شيء حسن ولكن اري انك شاب "ربما كان سنه فوق ال 25 سنة" والجرح في هذه السن يأخذ البرء منه اكثر من اسبوع وليس كجرح الطفل الذي يطيب في وقت اقل وعليه اري ان ترجيء الامر الي العطلة الصيفية حيث يكون لديك فسحة كافية من الوقت لتختتن(براحتك) وقال في نفسه "ما انت اغلف ربع قرن يعني لو انتظرت شهر حيحصل شنو؟) .. واخبره ان منتصف العام الدراسي يوشك ان ينتهي ولا سبيل لمنح اجازات لقرب موعد اختبار نصف العام واضاف ان قوانين العمل لا تعتبر الختان من اسباب منح الاجازة للضرورة! وربما اتجاوز هنا عن تطبيق القانون بحرفه مراعاة للانسانية والحالة الصحية والنفسية.

وذات مرة اتاه الكاتب نفسه شاكيا احد الطلبة ولنسمع شكاته كما رواها للعميد وهو في غاية الانفعال والغضب ينتفض جسمه كله وعيونه تشع بالاحمرار (جنابو جون دينق قال لي انت ما كسرت سنونك) ولم ير العميد في هذا القول ما يؤخذ عليه وقال له:"وماذا في ذلك؟ ولماذا تغضب كل هذا الغضب من قول كهذا فهذا شيء طبيعي وانا مثلا اسناني غير مكسرة) واجابه (يا جنابو كلام ده عندنا بتال كلاس)

قال العميد: وما وجه العيب في هذا الكلام؟

- يعني انا ما راجل

- وكيف ذلك

- يعني ولد لما يكسر سنونه يبقي خلاص راجل واذا ما كسروا سنونه يبقي ولد صغير وده عيب عندنا.

واستدعي العميد الطالب المسيء ووبخه توبيخا شديدا وطلب منه ان يعتذر الي الكاتب وان يسترضيه وان لم يفعل فانه سيتخذ ضده اجراء صارما وامتثل الطالب للأمر وسويت المسألة وعرف العميد لاحقا ان العرف عند قبيلة الدينكا هو قلع الاسنان السفلي في فك الفم وتشريط (فصادة) الجبهة عدة خطوط افقية متوازية في احتفال خاص يعمد به الولد بعد هذه العملية رجلا .. ولما سأل العميد الكاتب عن السبب الذي من اجله لم تقلع اسنانه السفلي اجابه بانه ولد وشب في مدينة واو ولذلك لم يتعرض لهذه العملية ، وقد لاحظ العميد بعدئذ كثيرا من شبان الدينكا باسنان كاملة سليمة وبغير (فصادة) خطوط علي الجبين مما يدل علي ان هذه الممارسات القبلية المرتبطة بالعرف في طريقها الي الزوال بانتشار التعليم والوعي تماما كاندثار الشلوخ واختفائها من وجوه النساء والرجال في شمال السودان. وقد مر وقت في شمال السودان كان فيه عدم ختان البنات عيبا كبيرا الي درجة الشتيمة والمعايرة بعبارة (يا ود الغلفة) والآن صار الوضع مقلوبا فالختان للبنات صار مذموما علميا وصحيا ولكن

العرف الذميم قد يأخذ وقتا طويلا حتي يزول. واستفهم العميد عن سبب الشجار واين حدث فاخبره ان ذلك كان في منزله وسط جمع من الصحاب وكان الطالب سكرانا واحتد معه في النقاش فعيره بعدم تكسير اسنانه وانه ليس برجل ليواجهه. وبعد ذلك علم العميد ان العادة جرت ان يجتمع الصحاب كل يوم جمعة في منزل احدهم بالتناوب ليحتسوا المريسة التي تصنعها ربة الدار ويدفعون ثمن ما يشربون ولا يجدون غضاضة في ذلك. والمريسة وهي المشروب الذي يصنع من الذرة بعد تخميره ولها انواع او درجات فمنها الخفيف والذي يتعاطونه كغذاء اثناء النهار مثل عصير الفاكهة وهم يتناولون وجبة غذائية رئيسية واحدة في اليوم عند المغرب ولا يعرفون الوجبات الثلاث من افطار وغداء وعشاء وقد لاحظ او اشتم بالاحري رائحة الفصل معبأة برائحة المريسة في الحصة التي يدرسها عقب فسحة الفطور مباشرة وتأتي الرائحة النفاذة من انفاس الطلبة المدرسين بعد تعاطيهم وجبة دسمة من المريسة .. ويوجد نوع اخر ثقيل من المريسة وهو مسكر ويتعاطونه عند السمر او المناسبات كالرقص والافراح والمأتم وبمناسبة ذكر المريسة فقد ابلغ نائب العميد عن انه وجد رئيس العمال سكرانا اثناء ساعات العمل ولما استدعاه العميد وسأله عن ذلك لم ينف التهمة ولكنه دافع عن نفسه بأنه لم يكن سكرانا وانه شرب مريسة فعلا ولكنها من النوع الخفيف بمبلغ زهيد من

المال وعلي حد قوله(انا يا جنابو ما كنت سكران انا سربت مريسة بقرسين بس وكمان مريسة بيضا كمان) .. اما الكاتب لوكا دال (تام الاسنان) فهو شاب ذكيي نشط مقتدر في عمله متقن له وكان يؤدي عمل ثلاث وظائق فهو الكاتب الذي يطبع علي الالة الكاتبة ويؤدي كل الاعمال الكتابية وهو المحاسب الذي يعد كشوفات الرواتب لكل العاملين بالمعهد من مدرسين ومتدربين وعمال وهو المترجم لاولياء الامور من لغة الدينكا الي العربية ، وهو المسجل وسكرتير لجان قبول التلاميذ ، اضف الي هذا خلقه المتين فهو النموذج لما ينبغي عليه موظف الخدمة المدنية ويقابله نظير له من هيئة التدريس شاب من ابناء الدينكا يدعي بنجامين بل بل وهو باسم الوجه مشرق الطلعة سمح الخلق سريع الحركة ومتمكن من تدريس المادة وفصيح في التحدث بالعربية وخط يده فيها جميل جدا ولذلك اختير ليكون مدرس طريقة للمتدربين Demonstrator ومدرس الطريقة هو الذي يدرس دروس معاينة يشهدها المتدربون ليتعرفوا علي الطريقة النظرية في تجربة حية امامهم داخل الفصل مع التلاميذ ولكل فرع في المادة المعينة طريقة مختلفة في تدريسه كالنحو والانشاء مثلا في مادة اللغة العربية والطلبة المدرسون يسكنون في داخليات بعيدة عن داخليات التلاميذ الصغار وليست للمعهد اسوار ولذلك من الصعب التحكم في دخول وخروج الطلبة الكبار خاصة عندما يجن الليل. فيتسللون ليلاً ويذهبون الي

(الحلة) – البلد – ومن هناك تأتي المشاكل من حين الي اخر وكلها تتعلق بالسكر والمشاجرات وان كانت ليست بالقدر الكثير ولكنها تقلق وتزعج الهدوء والنظام اللذان يسودان المعهد. ولما كان معظم الطلبة المدرسين متزوجين ولهم اولاد فمن الطبيعي ان تكون فترة الاربع سنوات التي يقضيها الواحد منهم في المعهد بعيدا عن عائلته ثقيلة الوطأ عليه من كل النواحي العاطفية والنفسية والجنسية وكذلك الناحية المالية فقد كان الواحد منهم يقتسم راتبه الصغير مع عائلته فقد كانت المرتبات في ذلك الحين لم تتساو بعد مع مرتبات الشماليين .. وكان محظورا عليهم ان يصحبوا معهم زوجاتهم واولادهم طيلة فترة التدريب بالمعهد وان كانوا يمكثون مع عائلاتهم طيلة العطلة الدراسية السنوية ، ولذلك كان تسللهم ليلا الي (الحلة)! وفكر العميد وقدر واهتدي الي امر اضمره في نفسه واتخذ قرارا ليعلنه في الوقت المناسب وجاءت مناسبة احتفال المعهد بيومه السنوي ويسمي يوم المعهد او عيد المعهد ويستمر عدة ايام تعرض فيه انشطة المعهد المختلفة من مشغولات ولوحات فنية واعمال خشبية ومعارض للمفروشات والملابس النسوية ومباريات في الالعاب الرياضية المختلفة وابرزها كرة القدم ويدعي لهذا العيد مفتش الحكومات المحلية وهو حاكم المنطقة والسلاطين والموظفين والتجار وعامة المواطنين وفي الحقيقة تكون تلك الايام ايام عيد بحق كلها بهجة ومسرة وكسرا لرتابة الحياة في البلدة وفي اليوم

الختامي للاحتفالات والذي يختمه العميد بكلمة مناسبة اعلن للطلبة المتدربين ما اضمره من قرار وهو السماح لكل متزوج ان يحضر عائلته للعيش معه علي شرط ان لا يلتزم المعهد او الحكومة بتهيئة السكن له او اي التزام اخر ، ولم يكن في تصوره ان يقابل هذا القرار بذلك الاحتفال المدهش، فقد دوي التصفيق عاليا لمدة طويلة وقفز البعض في الهواء من الفرحة وشكر صاحبنا الله في سره ان هداه الي ذلك القرار الصائب، وشكره اكثر عندما رأي مردود ذلك القرار في العام التالي فقد انتهت او كادت ان تنتهي مشاكل التسلل الي الحلة ليلا...

محكمة السلاطين

ذكر صاحبنا محكمة السلاطين في معرض ذكره للمشكلات والخصومات بين المتدربين وخشيتهم من احكامها وتفضيلهم ان يفصل العميد بينهم فيما يثور بينهم من مشاكل واتيحت له الفرصة ليشهد هذه المحكمة عن قرب عندما طلب منه زميله ناظر المدرسة الوسطي للبنين ان يصطحبه بعربة المعهد الي هناك حيث سينظرون ذلك اليوم قضية ولد حضر من واو وقصد الناظر ليلحقه بالمدرسة ولكن كانت الشهادة التي ابرزها مزورة فما كان من الناظر الا ان ابلغ الشرطة بذلك وقبض علي الولد وقدمت قضيته لمحكمة السلاطين لتقضي فيها، ولعله من المفيد ان نعلم شيئا عن هذه المحكمة فهي تتكون من اربعة من سلاطين البلدة الذين يمثلون قبائلها وهي الجور والدينكا والبونقو وقبيلة اخري ويرأس المحكمة سلطان قبيلة الدينكا وهي اكبر القبائل هنا ويسمي رئيس المحكمة (President) مثله مثل رئيس الولايات المتحدة الامريكية (وما فيش حد احسن من حد) كما يقول اخوتنا المصريون ، وهؤلاء القضاة يعينهم مفتش الحكومة المحلية وهو رئيس القضاء في المنطقة في نفس الوقت الي جانب مسئولياته الادارية، وقد حل مفتش الحكومات المحلية محل مفتش المركز الانجليزي في عهد الاستعمار وهو الحاكم بأمره في منطقته التي قد تبلغ مساحتها مساحة دولة عربية او

اوربية وفي يده كل السلطات القضائية والتنفيذية وهو مرؤوس لمدير المديرية (حاكم الولاية الآن) الذي بدوره مرؤوس للسكرتير الاداري في الخرطوم (رئيس الوزراء فيما بعد) .. ومحكمة السلاطين هذه تنظر في القضايا الصغيرة وسلطاتها محدودة في الحكم بغرامات صغيرة او مدة سجن يسيرة واما القضايا الكبيرة فينظرها المفتش بنفسه وهذا النظام موروث من ايام حكم الانجليز للبلاد ونجد شبيه للمحاكم التي يديرها السلاطين ما يسمي بالمحاكم الاهلية في الشمال والتي لا يشترط في اعضائها ان يكونوا قد درسوا القانون في كلية الحقوق ، ومبني محكمة السلاطين عبارة عن (كرنك) اي كوخ مستطيل من الخشب والقش وفي طرف احد اضلاعه الطولية من الداخل مسطبة من الاسمنت تعلو من الارض بمقدار متر ويجلس فوقها القضاة السلاطين في صف واحد وهم جلوس علي مقاعد خشبية قاعدتها من القماش ويتوسط القضاة الرئيس (President) وامامه منضدة وضع عليها صحن فيه كمية من التبغ المحلي ، والرئيس يلبس برنيطة علي رأسه ويدخن طيلة الوقت ولا يفارق غليونه فمه، وكان يجلس امامهم جانبا علي كرسي وامامه منضدة رقيب شرطة شمالي واضعا امامه ملفا به اوراق القضايا وهو يمثل الادعاء وعلي بعد مترين من المسطبة يجلس علي الارض العارية شهود المحاكمات من عامة الناس واقرباء المتهمين ويقف المتهمون علي جانب قريبا من رقيب الشرطة ،

وما ان دخل العميد والناظر من الباب قامت هيئة المحكمة باكملها مرحبة بهما واخلي لهما اثنان من القضاة مقعديهما ليجلسا عليهما فشكروهما ورفضا بأدب ذلك ولكن احد القضاة اصر قائلا (انتو ناس كبار لازم يقعدوا) وامر الرئيس بحزم ان يحضروا مقعدين بسرعة وفي لحظات رجع حارس المحكمة بمقعدين ووضعهما علي المسطبة بجانب القضاة وجلس الاثنان ولم تستقر المحكمة وتبدأ جلستها الا بعد ان اجلسوا الناظر والعميد ، وبعدها تكلم الرئيس مخاطبا الرقيب ان يقدم قضية الولد ووقف الرقيب ونادي علي الولد ليقف امام القضاة وقال لهم ان هذا الولد زور شهادة ليدخل المدرسة وهذه جريمة يعاقب عليها القانون. وقبل ان نستمر في وصف مجريات المحاكمة كانت هنالك تصرفات غريبة علي العميد لم يألفها او يشاهدها من قبل فقد رأي عدة مرات افرادا من شهود المحاكمة يجيء الواحد منهم الي المنضدة الموضوعة امام الرئيس ويأخذ حفنة من التبغ من الصحن ويشمها ثم يأخذ مقدارا منه ويرجع دون استئذان من الرئيس ، وفي نفس الوقت لا يأبه الرئيس لهذا التصرف وكأنه شيء عادي والنظارة او شهود المحاكمة يدخنون غلايينهم داخل المحكمة دون حرج .. وبعد ان بسط الرقيب الاتهام قام واحد من النظارة وقال بأن الولد مسكين وصغير وينبغي ان يطلق سراحه، وقام اخر وقال الموضوع بسيط ويجب ان يكون الحكم طفيفا، وثالث قال ان علي المحكمة

ان تسامح الولد هذه المرة وان عاد مرة اخري للخطأ او الاثم فعلي المحكمة ان تردعه بحكم شديد .. تدور هذه المشاهد ويقفز الي ذاكرة صاحبنا ما قرأه وشاهده في السينما من محكمة الثورة ابان الثورة الفرنسية حيث كان يحق لكل مواطن ان يدلي بدلوه في القضية المنظورة ولكن تلك المحكمة كانت محكمة تشفي وانتقام من النبلاء والطبقة الارستقراطية والتي كانت احكامها لا تخرج عن عقوبة الاعدام بقطع الرؤوس بآلة الجيلوتين ، ولعل التماثل الوحيد في المحكمتين هو ان للمشاهدين الحق في ابداء رأيهم في القضية والحكم. وبعد سماع اراء المشاهدين تحدث احد القضاة وقال ان هذه القضية بسيطة ويكفي ان يجلد الولد عشر جلدات ويطلق سراحه، وهنا قام ممثل الاتهام (الرقيب) وقال ان هذه القضية ليست بسيطة كما قال السلطان .. والقضية كبيرة والمادة (ذكر المادة) من قانون الجنايات تعاقب عليها بالسجن سبع سنوات كاقصي عقوبة وهنا قاطعه السلطان ثائرا غاضبا(انا سلطان وانا كبير اقول القضية بسيط وانت تقول ما بسيط انت يا ولد ما تحترم انا انت شم تراب دا .. دا بتاع بلدك) ورد عليه الرقيب قائلا بأنه يقول بالقانون الذي يحكم به كل السودان وان هذا البلد او اي مكان اخر في السودان بلده والسودان للسودانيين جميعا .. وتكهرب الجو واحتدمت المشاعر وسمعت همهمات واصوات مختلطة .. كل ذلك الوقت كان الرئيس ساكتا يشد انفاسا عميقة من غليونه

ويخرجها سحابات من الدخان امامه ولما احتد النقاش والجدال وضع غليونه وصاح بصوت جهوري (اسكت) فانقطع الكلام والضجيج وكأنك صببت ماء علي نار واطفأتها والتفت الي السلطان الغاضب الذي اثار كل تلك الزوبعة وقال له:"انت من زمان تتكلم وتقول كلام فارغ وانا ساكت ، وبعدين تقول انت كبير وهو صغير .. انا ما أصغر منك ورئيس بتاعك انت ما في احترام لرئيس بتاعك President بتاع المحكمة؟"

وهنا اخذ السلطان يعتذر بحرارة للرئيس ويردد انا غلطان انا غلطان وهو قائم علي قدميه ، ونهره الرئيس قائلا (اقعد وما تتكلم تاني) والتفت الي السلاطين الاخرين وتبادل معهم بعض كلمات ثم اعلن الحكم علي الولد وعليه ان يدفع غرامة خمسين قرشا وان يجلد 15 جلدة وسألنا عن رأينا في الحكم فأبدينا تأييدنا وقلنا له ان المحكمة غلبت جانب الرحمة وعامل صغر السن للمتهم وانها المرة الاولي لارتكابه جرما واستأذنا الرئيس في الانصراف فوقف القضاة جميعهم لوداعنا.

حياة النـاس

الناس هنا يعيشون عيشة البداءة والتخلف ويحيون علي الفطرة ومجموعة القبائل التي تعيش هنا اكبرها قبيلة الدينكا وهي اكبر القبائل عددا ليس في الجنوب وحسب وانما في السودان قاطبة وهم يتمركزون في مديرية (ولاية) بحر الغزال ويوجدون باعداد اقل في ولايتي اعالي النيل والاستوائية ونذكر منهم دينكا عالياب واتويت واقار وبور علي سبيل المثال وهم قوم طوال القامة رشيقو القوام يندر او يكاد لا تجد واحدا منهم بدينا او له كرش ، ولون بشرتهم اسود يكاد يبرق سواده ويتميزون (بشلوخ) خمسة متوازية بطول الجبهة وبقلع الاسنان السفلي من فك الفم ، وهم رعويون يرعون الابقار ويحبونها الي درجة تقترب من التقديس وهم يلتقون في ذلك مع الهندوس في الهند ، ولكن هنا تقاس مكانة المرء في المجتمع بما يملكه من ابقار وهي ثروة ثمينة يتباهي بها الفرد وهي الوسيلة لدفع المهر عند الزواج بدلا من النقود ، وحدثت العميد اخته ان زميلة لها جنوبية تخرجت في الجامعة وتزوجها دينكاوي مثلها وهو دبلوماسي وكانا في بلاد الغربة في اوربا ، وسألتها ان كان قد دفع لها مهرا نقودا ، فنفت الزوجة ذلك وقالت انه ارسل لاهله ان يدفعوا مهرها ابقارا لاهلها وهم الان يحتفظون لها بهذه الابقار وفيما بعد سأل العميد بعض الطلبة المتدربين عن المهر

بالابقار فقيل له انه يتفاوت من عشرين بقرة الي مئتين .. وسأل ثانية الا يمكن للشاب ان يتزوج باقل من عشرين بقرة ، واجابه احدهم (ممكن ولكن يعرس مرة شينة) "امرأة قبيحة" وهنا قفز الي ذهن العميد بيت شعر يقول:

ومن يخطب الحسناء لم يغلها المهر

والدينكا قبيلة يتميزون بالشجاعة والعزة ويتميزون بروح مرحة ومزاج طروب وميل للغناء والرقص ويخيل للواحد ان كل فرد في هذه القبيلة شاعر وراقص ومغن فنجد الواحد منهم يرتجل قصيدته ارتجالا ويلحنها ويغنيها ثم يرقص عليها وهو سائر في طريقه ويتوقف قليلا ليرقص رافعا يديه الي اعلي مادا صدره الي الامام وضاربا الارض بقدميه في قوة الواحدة تلو الاخري وكأنه سيخرقها ، وشكل اليدين المرفوعة الي اعلي يحاكي شكل قرون ثوره وموضوع كل الاغاني هنا تقريبا عن الثيران ووصفها والغزل فيها واطرائها ، والعجيب ان الفتاة اذا ارادت ان تطري فتاها فانها تبدي اعجابها بثوره وتنشيء اغنية في جمال وقوة الثور كما اخبرت .. وحصل ان ذهب العميد الي رمبيك في مهمة ولما عاد وجد ان السجين المضمون ويدعونه (دور برآه) وهؤلاء السجناء من هذا النوع غالبا ما تكون جريمتهم هي الشجار ويبعثون بهم للعمل في بيوت كبار الموظفين نظير اجر زهيد شهريا ، استقبله (دور برآه) بالغناء والرقص وطلب العميد من الطاهي ان يترجم له الاغنية من لغة

الدينكا الي العربية وكان السجين يصف في اغنيته رحلة العميد الي رمبيك منذ ان وضع قدمه علي العربة عند الدار والي عودته سالما.

وشيء آخر يتوقف عنده المرء كثيرا وهو ان هؤلاء القوم يمتازون باستقامة خلقية نادرة ، فالامانة والصدق عندهم سجية ، والسرقة هنا منعدمة لان لا احد يسرق ، وليس هناك شذوذ جنسي والناس هنا سواسية لا فضل لاحد علي الاخر ، وامر آخر توقف عنده كثيرا وصدمه وهو مرأي الناس عرايا كما ولدتهم امهاتهم عدا النساء المتزوجات اللائي يغطين موضع العفة منهن (بفروة) من جلد الضأن يلبسنها حول خصورهن! وهذا المنظر القبيح هو ميراث الحكم الاستعماري الانجليزي بعد خمسين سنة من حكمه للبلاد! وتحضر العميد هنا مقابلة مع مفتش المركز الانجليزي لمركز رشاد في جبال النوبة وكانوا في رحلة دراسية قبل تخرجهم من كلية المعلمين الوسطي ببخت الرضا فقد سأل المفتش لماذا لا يحاربون العري في بعض مناطق جبال النوبة ، وحدجه المفتش بنظرة فيها الاستهجان والغضب من السؤال واجابه بآن اهل البلد يفضلون العري .. وحادثة واقعية اخري حدثت في الجنوب ابان الحكم الاستعماري فقد رأي المفتش الانجيزي رجلا جنوبيا يرتدي جلابية واستدعاه وامره ان يشتري علبة ثقاب ثم امره ان يخلع الجلابية ويشعل فيها النار وقال له (هل هذا اللباس لباس ابوك او جدك او أهلك؟

انه لباس الجلابة (الشماليين) ، اياك ان تفعل هذا مرة اخري) .. وهذا الذي حدث يتمشي مع السياسة الاستعمارية التي رسموها لفصل الجنوب عن الشمال ومنع اي تأثير حضاري علي الجنوب وابقائهم علي بدائيتهم وتخلفهم وجهلهم حتي تسهل السيطرة عليهم وكان من ذلك ان اصدر الانجليز قانون المناطق المقفولة وهذا القانون يمنع السفر او الذهاب الي الجنوب وبعض اماكن دارفور بالنسبة للشماليين الا بتصريح خاص ولمدة معينة وكان يتولي التجارة في الجنوب التجار الاغريق وكانت البعثات التبشيرية المسيحية تتولي امر التعليم ويقوم بالتدريس القسس الاجانب او السودانيون القبط في جبال النوبة بالذات.

ومما لفت نظر صاحبنا واثار تعجبه هو ان الرجل يتزين بالخرز (السكسك عقودا في عنقه وبالاساور في معصميه ورجليه ويطلي جسمه او بعضه بالوان مختلفة كما انه يطيل شعره ويصبغه بلون اصفر او احمر ويتفنن في تصفيفه بينما المرأة تحلق شعر رأسها كله (قرعة) ولا تتزين مثل الرجل .. وتذكر صاحبنا ما قرأه ذات مرة عن كاتب ولعله الجاحظ يصف فيه الذكر بأنه اكثر اتساقا في البدن من الانثي وضرب مثلا لذلك بالحيوانات فانك تجد الديك اجمل من الدجاجة والاسد اجمل من اللبوة ونجد طائر (ود ابرق) اكبر حجما واجمل من (بت ابرق) وكذلك ذكر البلبل اجمل من انثاه ، ولكنه يتحفظ عندما

يأتي الامر الي الانسان فان انثاه تتميز بالحسن عن الذكر ويتفوق عليها في قوة الجسد.

والقبيلة الثانية التي تسكن التونج هي قبيلة الجور وهذه القبيلة حباها الله بذوق فني ومهارة يدوية في تشكيل التماثيل من الخشب وفي اعمال النجارة بشكل عام ، وهم ينحتون من الخشب تماثيل صغيرة للحيوانات المختلفة من خشب الابنوس خاصة، تكاد تنطق بالحياة ويقتني الشماليون والاجانب هذه الانانتيك ويزينون بها حجرات الاستقبال .. ومن عجب ان رجال هذه القبيلة (يمشطون) شعورهم اي يرسلونها جدائل كما تفعل النساء في بعض انحاء السودان واما النساء فيحلقن رؤوسهن بالموسي ويمسحونها بالزيت ومثلهم في ذلك مثل نساء الدينكا ولكن النساء والرجال من الجور يسترون عوراتهم بقطع من القماش مع ابقاء بقية الجسم عاريا وصدف ان كان هناك بائع سمك يمر كل يوم من امام منزل نائب العميد حاملا عصا طويلة يتدلي منها كمية من السمك الطازج في طريقه الي السوق وكانت زوجة نائب العميد التي وفدت حديثا من الشمال تستدعيه لتشتري منه السمك وتتبسط معه شأن النساء فقد خدعها شعره الممشط وحسبته امرأة ، وعلمت بعدئذ انه رجل وان الرجال يمشطون شعورهم وكان يعمل مع العميد طاه حضري من الجور وتوفي والده واقام له (كرامة) في الاسبوع من وفاته ونحن في الشمال نذبح خروفا عندما يتم اسبوع علي الوفاة

وتسمي (كرامة) ، ودعا الطاهي العميد لحضور (السبوع) ولبي
الدعوة ووجد ان الحضور من اقارب ومعارف المتوفي وانهم
اعدوا المريسة بكميات كبيرة ونبحوا ثورا والجميع في انشراح
وحبور وهم يعبون من الشراب عبا ثم بدأ الرقص صاخبا حارا
وكان الطاهي ابن المتوفي اكثرهم نشاطا في الرقص ، وجاء
عجب صاحبنا من ان المأتم انقلب الي عرس وان الحزن حل
محله الفرح وكان يتوقع أن يري وجوها كابية وعيونا دامعة
وقلوبا مفطورة حزنا والناس يعزون في الميت بوقار وحزن
اصيل او مصطنع ، اما ما شاهده فلا يدري له تفسيرا ولا يفهم
له معني .. وفي اليوم التالي سأل الطاهي مبديا تعجبه من
ابتهاجهم واحتفالهم بوفاة والدهم فاجابه بأن هذا شيء طبيعي
لديهم وانهم يقصدون من ذلك تسلية المصاب عن مصيبته وابعاد
الحزن والاسي عن نفسه والتنفيس عن كل ذلك بالرقص والغناء
فهم لا يريدون ان يزيدوا همه وبلوته بالبكاء والعويل ووجد
صاحبنا كثيرا من الوجاهة في هذا المنطق ، وتذكر حدثيا للنبي
صلي الله عليه وسلم في هذا الصدد يقول ما معناه انه لا يحق
للمؤمن الحداد فوق ثلاث ليال .. وشبيه من هذا تصرف يعود
الي اختلاف العادات والتقاليد المنبثقة من اختلاف الثقافات انه
ذات ليلة وعند منتصف الليل والسكون مخيم علي البلدة سمع
العميد اصوات غناء وضحكات صاخبة نسائية اتية من الجهة
التي يقع فيها سكن المدرسات المتدربات وكن حينئذ عشر فتيات

لهن سكنهن الخاص وفصول دراستهن بعيدا عن المتدربين وقريبا من بيت نائب العميد وبيوت المدرسات الشماليات اللاتي يعملن بالمدرسة الاولية .. وكانت الليلة آخر الاسبوع اي في يوم الخميس فمنذ ان جاءت الحكومة العسكرية بقيادة الفريق ابراهيم عبود غيرت العطلة الاسبوعية من يوم الاحد الي يوم الجمعة مع السماح للموظفين والطلبة المسيحيين بالخروج من اماكن العمل بعد الساعة العاشرة صباحا من يوم الاحد ليذهبوا الي الصلاة في الكنيسة .. استمر الصخب والغناء والضحكات الي ما يقرب الفجر ، وعند استئناف الدراسة في يوم السبت استدعي العميد كل المتدربات الي مكتبه واخذ في توبيخهن وتقريعهن علي مسلكهن الشائن فانه لا يجوز للنساء ان ترتفع اصواتهن بالغناء والضحكات الصاخبة دون مناسبة تستدعي ذلك فضلا عن الازعاج الذي يسببه ذلك للنيام واقلاق راحتهم ، وقال لهن ان سيسامحهن هذه المرة ولكنه سيتخذ بشأنهن اجراءات صارمة ان عدن لهذا السلوك ، والغريب انهن لم ينبسن ببنت شفة حتّي صرفهن من مكتبه وعلم فيما بعد ان ما قامت به اولئك الفتيات لا يعتبر عملا معيبا في عرفهن .. وكان العميد يصدر في حكمه عن خلفية الشمالي وعرفه المتعارف عن سلوك النساء ، واعادت هذه الحادثة الي ذاكرة العميد حادثة اخري كان مسرحها داخلية مدرسة بورتسودان الحكومية الوسطي وشاهد احد التلاميذ وهو يبصق (سفة السعوط) في حوض غسيل الوجه

وناداه غاضبا وصفعه علي وجهه قائلا له باستنكار شديد (انت بتسف يا ولد؟) واجابه التلميذ بلهجة الهندنوة المميزة (ايوه نسف يا استاذ) وزاد غضبه وصفعه مرة اخري قائلا (كمان تتحداني وتقول بتسف؟) وقال الولد (يا استاذ ابوي بنفسه يسف ، امي بنفسها تسف ، اخوي بنفسه يسف ، اختي بنفسها تسف) وهنا هدأت ثائرة الاستاذ وراجع نفسه وقال له (لو كان الامر كذلك فسف) .. وقد كان في امدرمان عندما كان يعمل مدرسا باحد مدارسها المتوسطة تعاطي التمباك (سف السعوط) او تدخين السجائر من الكبائر اذا اتاها الصغار ولا يقترف هذا الذنب الا المتشردين من ابناء الشوارع ، وكانت عقوبة التلميذ اذا قبض متلبسا بهذا الجرم هو العقوبة الشديدة التي تصل الي حد الفصل من المدرسة.

والسودان قطر قارة بمعني كبر مساحته واتساعه وكثرة قبائله وتنوع ثقافاته واعرافه ومعتقداته وقد تلتقي احيانا وتتنافر احيانا اخري وقد تتماثل وتأتلف وقد تختلف وتتباعد ، ولعله من المفيد والاحسن ان تجري الوحدات الحكومية تنويرا وتعريفا للموظف المنقول للعمل من الشمال للجنوب مثلا ، وقد كانت وزارة المستعمرات الانجليزية تخضع الموظفين الذين ترسلهم للعمل في الاقطار المستعمرة لتلقي دروس وافية ومعلومات وافرة عن الاقطار التي سيعملون بها ، واظن هذا التقليد متبع حتي الان في وزارة الخارجية ، ويقابل هذا ما يحدث عندنا فان صاحبنا

يذكر انه لما ترقي الي ناظر مدرسة وسطي ارسلته وزارة التربية والتعليم ليفتتح مدرسة المناقل الوسطي ولم يكن يعرف شيئا عن المناقل واين تقع في خريطة السودان ، وذهب الي الوزارة وهناك زودوه بكمية من المنشورات الادارية والمالية واستفهم منهم عن المناقل وكيفية الوصول اليها فاجابه المسئول انه لا يعلم شيئا عنها وعليه ان يذهب الي مكتب التعليم في مدينة مدني وهناك سيدلونه علي المناقل!

نماذج من شخصيات البلدة

كان العميد في مكتبه والعمل في ذروته ورنً جرس التلفون ورفع السماعة واذا بالمتحدث مفتش الحكومات المحلية وبعد التحيات المتبادلة اخبر العميد بأنه فكر في ان يجعل ليالي البلدة بهيجة الي حد ما وان يربط الموظفين بعلاقات اجتماعية حميمة خارج نطاق العمل ولذلك يقترح ان نسهر كل يوم خميس في منزل احدنا وعلي صاحب الدار ان يذبح ذبيحة وان يحضر كل مدعو ما يحلو له من الشراب وانه يري ان يكون الحضور او السامر مقصورا علي رؤساء المصالح الحكومية في البلدة من الدرجات العليا يعني الدرجة .D.S وتشمل هذه الدرجة عميد مركز تدريب المعلمين والمعلمات وناظر مدرسة البنين الوسطي وناظر المدرسة الصناعية الوسطي وسر تجار البلد الشمالي والتجار الأغريق الاثنين وهذا التصنيف يستثني ضابط الشرطة ووكيل البريد وضابط الزراعة وملاحظ الغابات وضابط السجن لان درجاتهم الوظيفية ادني ، ولكن اضيف للسامرين ضابط السجن الجنوبي لانه كان صديق الجميع وكان للمفتش معه مآرب اخري سوف نعرفها في قابل الايام ، واستثني من الدعوة ضابط المجلس الريفي ونائبه الجنوبيان لانهما كانا انطوائيين ولا يختلطان بالشماليين واحدهما وهو نائب الضابط يكن كراهية مريرة للشماليين وصار فيما بعد من قادة التمرد وما زال الي

الان ، كما استثني حكيماشي المستشفي الشمالي وهو شاب ممتاز ولكن لا (يستلطفونه) لانه كان جادا وينتمي الي احد الجماعات الاسلامية ولانه كان لا يقبل ان يأتي ليري زوجة المفتش في منزله عندما تمرض او احد اولادها بل يحتم علي الجميع ان يأتوه في المستشفي. ولما كلم العميد المفتش بأن هذا التمييز فيه تفرقة وربما توغر الصدور وتدل علي التعالي اجابه بأنه يقصد ان يكون العدد محدودا وان يتحقق الانسجام والتفاهم فالغرض هو تمضية وقت مبهج لا يشوبه نكد او توتر.وكانت درجة المفتش الوظيفية وكل المفتشين حينئذ في الدرجة B وكان مفتش تعليم المديرية في واو في نفس الدرجة ، وهكذا استمرت تلك الليالي الملاح بالتناوب بين الثمانية المختارين وكان الواحد يأتيه دوره للاعداد لليلة بعد سبع ليال او شهرين تقريبا.

وكان هناك نادي البلدة الذي يؤمه الجميع من جنوبيين وشماليين، موظفين وتجار ، وبه طاولات للعب الورق والشطرنج وكراسي جلوس وثيرة للجلوس والاستماع للراديو الضخم الفخم والذي يدار بالبطارية السائلة، او يجلس البعض (للونسة) وكان الجميع من المفتش الي اصغر موظف يذهبون الي النادي كل يوم فهو المكان الوحيد للاجتماع بالناس وللترفيه بعد عناء العمل وان كان البعض يفضلون تقضية الوقت مع بعضهم في المنزل مجتمعين حول زجاجات الشراب او يأتون للنادي لمدة ساعة من الزمن ثم يخرجون الي مجالسهم الخاصة

وكان النادي يقفل ابوابه او بالاحري ينفض الناس قبل الساعة العاشرة ليلا، ويكاد النادي يكون مقصورا علي الشماليين فمن النادر ان يغشاه الجنوبيون من الموظفين علي قلتهم ، وقد لحظ صاحبنا ان معظم الموظفين في جميع المدن التي عمل بها في جهات السودان الاربع لا يجمعهم الليل والا وفي معيتهم الشراب او لا يجتمعون الا علي الشراب الا من رحم ربي وهم قليل! والاغرب من هذا انهم يؤدون اعمالهم في اليوم التالي علي احسن وجه وربما يرجع ذلك الي انهم لا يفرطون في الشراب الي السكر المبين الذي يرون فيه السماء ارضا والارض سماء او الي درجة انعدام الوزن ويوفرون هذا لنهاية الاسبوع! واعجب من هذا كله ان الكثيرين منهم يؤدون فروضهم الدينية علي اكمل وجه وفلسفتهم في ذلك قولهم (ده براه ، وده براه) .. وكان المفتش رجلا فوق الخمسين من العمر طويل القامة في امتلاء، حلو المعشر فيه ذكاء ودهاء ويميزه تواضع ملحوظ واتصل الود بينه وبين العميد واصبح ما بينهما من صحبة تقترب من الصداقة وربما اصطفاه المفتش لانه لم يشب الاحترام المتبادل بينهما ملق او نفاق ولانه كان يجابهه برأيه دون مداراة او خشية كما اعتاد البعض عند تعاملهم مع الحكام والرؤساء فقد راي امورا يأتيها المفتش ولم ترق له ، واول ما خبر من ذلك عندما ذهبا سويا لتفقد مدرستين افتتحتا حديثا في اقصي حدود المركز وكان في صحبتهما ضابط السجن والذي

اراد ان يتفقد بدوره معسكراً للمسجونين علي مبعدة من البلدة حيث يعملون في مزرعة تابعة للسجن واستغرقت الرحلة بالعربة من طراز (الكومر) نحو الساعة ونصف الساعة خلال طريق ضيق تحف جانبيه الحشائش الطويلة ومن ورائها الغابات الكثيفة ، وكان الجو صحوا والهواء منعشا والمناظر خلابة تخلب اللب وتفرض علي المرء ان يسبح بحمد الخالق وجلاله ، ويمضي العميد في روايته قائلا: وبعد ان فرغنا من المهمة وقفلنا راجعين قال المفتش آن الاوان الآن لتتفرغ للصيد وكان يحمل معه في العربة بندقية صيد ، وكنت اركب الي جانبه ويركب في الخلف جنديان من الشرطة بسلاحهما ويسير خلفنا في عربة اخري ضابط السجن ويرافقه عسكري ايضا ، وكنت قبلا قد رأيت صورا فوتغرافية معلقة علي جدران صالون منزل المفتش تظهره احداهما وهو يضع رجله وبندقيته علي جسم فيل اصطاده ، وصورة اخري يظهر فيها وهو يضع رجله وبندقيته فوق جثة اسد جندله برصاصة من بندقيته .. اذن الرجل محترف صيد او هاو محترف وفوق ذلك هو صائد ماهر او كما يقال (نيشنجي) اي لا يخطيء الاصابة وامر المفتش السائق بأن ينحرف عن الطريق ويسير داخل الغابة وما هي الا دقائق سرناها حتي ابصرنا قطيعا من غزلان تسمي الواحدة منها (حمراية) وكان القطيع يضم نحو خمسين منها وهذا النوع من الغزلان كبير الجثة واقرب الي عجل البقر في حجمه ولون

فروته بني يميل اكثر الي الحمرة ومن هنا جاءت التسمية (حمراية) في ظني ، واقتربت العربة من القطيع ولكنه لم يجفل ولم يجر بل اسرع القطيع خطاه عدة امتار ثم توقف ، وتوقفت العربة وترجل المفتش واخذ يصوب بندقيته ويطلق النار نحو احداها ويجندلها ثم الي الاخري وهكذا دواليك حتي بلغ العدد عشر حمرايات وكانت هذه الحيوانات المسكينة كلما وقع منها واحدة جرت بضع خطوات ثم تتوقف والمفتش ماض في القتل ولا تخيب اصابته ابدا ورأيته وقد اصابته ما يشبه ما سميته نشوة القتل او حمي القتل ووجدت نفسي لا اراديا امسك بيده واصرخ فيه (كفاية هذا يكفي) لانه كان يمكن ان يبيد القطيع كله وقلت له انه اصابني صداع ودوار ولا استطيع ان اتحمل اكثر من ذلك ، وتوقف وقال لي (انت قلبك رهيف) وحقيقة كانت تلك اول مرة اذهب فيها واشاهد فيها صيد الحيوانات ولدي اعجاب خاص بالغزلان فهي مخلوقات جميلة رشيقة لها عيون ساحرة لطالما شبه بها الشعراء عيون الحسناوات من البشر ولكني مغرم بصيد السمك واحب لحمه حيث لا دماء تراق ولا اجسام تهوي علي الارض! وقال المفتش ان (كيفه) لن يتم الا اذا اصطاد (تيتل) هل لاحظت كلمة (الكيف) هنا – والكيف غاية الانبساط – عندما يتحول القتل الي كيف! والتيتل نوع من الغزلان مرتفع القامة قوي الجسم متناسق الاعضاء يميل فروته الي اللون الرمادي المشوب بسواد براق ويزين رأسه قرنان

مستقيمان وعيناه براقتان متحديتان وعندما نراه تجد فيه عظمة وشموخ ويمكن ان تطلق عليه كلمة Majestic الانجليزية وهو صعب الاصطياد ولا يقدر علي صيده من بعد الا الصائد المتمرس البارع في الاصابة ولأن اعداده قليلة نسبة لبقية الصيد فان الصائد الذي يناله يتباهي بذلك .. وجمع العساكر الحصيلة الوفيرة من الصيد وحملوها في صندوق العربة الخلفي حتي امتلأ وتكومت اجساد الحيوانات عالية فوق بعضها البعض .. وقال العميد في نفسه (افهم ان يقتل الانسان الحيوان ليطعم منه لحمه ولكن ماذا سيفعل المفتش بهذه الكمية الجسمية من اللحم حتي وان اهدي منها فأين سيذهب المتبقي وهو كثير؟ كان الهنود الحمر في امريكا يعتمدون في طعامهم ومعايشهم علي حيوان البايزن ولكن البيض شنوا حرب ابادة علي جاموس البايزن ليستأثروا بفرائه ويتركوا مئات الجثث للتعفن والبلي ومن هنا ثار الهنود الحمر ضدهم مدافعين عن مصدر قوتهم وحياتهم وارضهم بينما تصورهم لنا سينما هوليود الامريكية كمجموعات من الهمج الذين لا هم لهم سوي اصطياد الرجل الابيض وقتله بوحشية مقززة بينما الحقيقة هي ان البيض الوافدين من وراء البحار راحوا يبيدون الحيوان والانسان الهندي الاحمر معا ويجتثون من سطح الارض اصحابها! ثم استأنفوا المسير والمفتش ينظر بعينين مثل عيني الصقر عله يبصر بتيتل ، ولكنه ابصر عن بعد بحيوان من الصيد يدعي

(ابوعرف) وهو يتميز بجثة ضخمة وينحدر جسمه من الرأس الي الذيل ويتدلي في اسفل حنكه عرف من الشعر ولذلك سمي ابوعرف ، وصوب المفتش واطلق النار واصابه في رجله وكسرها وبرغم ذلك اخذ الحيوان يجري علي ثلاثة قوائم وهم يطاردونه بالعربة حتي خارت قوي الحيوان من الجري ومن النزيف فبرك علي الارض وادركوه وهو ينزف ، ورأي صاحبنا منظرا لن يبرح مخيلته ابدا ، فقد كان الحيوان ينزف دما من منخريه والدموع تجري من عينيه علي وجهه ، اهي دموع الحرقة ودموع الغيظ ، دموع الالم ام دموع الانكسار والعجز وقلة الحيلة؟ ولم يكن يخطر بباله ان الحيوان يبكي كالبشر رغم ما سمعه عن دموع التماسيح ولكن تلك دموع من نوع اخر وكان يظن التعبير من المحسنات البديعية في اللغة ، وناول المفتش البندقية الي ضابط السجن وطلب منه ان ينهي حياة الحيوان ، واطلق الاخير النار عليه ولم يصبه في مقتل ، وهنا خطف المفتش البندقية منه واطلق منها طلقة اسفل عنق الحيوان اخترقت رأسه وكانت القاضية سكنت بعدها حركته ، واستأنفوا المسير والمفتش يتشوق للتيتل واتوا علي منطقة مفتوحة ليست كثيفة الاشجار وتتخللها كثبان اشبه بالتلال وعلي تلة منها وعلي مسافة ثلثمائة مترا تقريبا ابصروا بتيتل يقف علي رأس التلة رافعا رأسه عاليا في شموخ وكأنه مزهو بنفسه، واوقف المفتش العربة ونزل منها وجلس علي الارض

مستندا علي ركبته ورافعا رجله الاخري واضعا البندقية علي كتفه وصوبها نحو الحيوان بتمهل وهدوء وثبات ، وحبس الجميع انفاسهم وخيم الهدوء والسكون والترقب ، واطلق المفتش النار وشاهدوا التيتل يقع من حالق الي اسفل التلة صريعا واصابت المفتش فرحة بليغة امتدت منه الي الباقين وهنأوه علي هذه الاصابة البارعة الموفقة ، وبعد ذلك استأنفوا المسير الي التونج وكان المفتش في قمة (الكيف) .. والتيتل الصريع دعا الي ذاكرة العميد قصة تيتل اخر انقذ بلدا من حاكم ظالم متجبر ، فقد امر ذلك الطاغية رعيته بأن يزحزحوا جبلا يقف حائلا بين قصره وبين المنظر وراء الجبل وكان الجميع يعملون علي تكسير الجبل من الصباح حتي مغيب الشمس وجلاوزة السلطان يلهبون ظهورهم بالسياط لحثهم علي العمل ، وكان من ينهار من التعب يقتل في الحال ، وبلغ الكرب بالناس مبلغا عظيما وفكروا في وسيلة تنجيهم من هذا العذاب ومن هذا الطاغية ، فذهبوا الي عجوز حكيمة داهية لتخلصهم من ذلك الطاغية ومنوها بذهب ومال طائل ان فعلت ذلك ، وكانت العجوز تتمتع بمرتبة خاصة عند السلطان وعند القبيلة ، فجاءت السلطان واخذت تطري فيه وتمجده ثم قالت (انت يا سيدي ركبت كل شيء من الحصان الي الجمل الي الحمار والبغل ولكن هناك حيوان واحد لم تركبه حتي تتم عظمتك وتفوقك علي السلاطين) وسألها عن هذا الحيوان فاجابت بأنه التيتل .. وهنا امر

السلطان بأن يأتوه بتيتل ليركبه ، وبعد مشقة ومدة ليست بالقصيرة جاءوا بالتيتل مقيدا بالحبال محمولا ، وامرت العجوز ان يربطوا السلطان ربطا محكما الي ظهر التيتل حتي لا يقع ، وفكوا وثاق التيتل فقام وانطلق كالاعصار جاريا داخلا الغابة وبعد حين قصوا اثر التيتل فكانوا يجدون علي الشوك مزعة من لحم السلطان هنا وقطعة هناك وتمزق جسد السلطان اربا اربا بين الاشواك والادغال واستراح الناس من الطاغية!

ووقف المفتش وصحبه عند معسكر للسجن علي مبعدة ستة اميال من البلدة وهناك انزل المساجين حصيلة الصيد من العربتين بهمة وابتهاج بالغ لما يتوقعونه من نيلهم من هذا اللحم، ورأي العميد حبالا منشورة في صفوف كحبال نشر الغسيل وعلم بعد ذلك ان المساجين يقطعون لحم الصيد الي شرائح ويعلقونها علي الحبال لتجف وتصير (شرموط) ثم يعبأ في صفائح ويدبغون فراء وجلود الحيوانات ويبيع المفتش كل ذلك الي تجار معينين وهم يرسلونه للبيع في الشمال حيث يعتبر قديد لحم الصيد (الشرموط) مستطاب في الاكل ويعمل منه (ملاح الشرموط او التقلية) المعروف في الشمال .. وهنا ادرك صاحبنا سر الاسراف في قتل الغزلان .. وهناك امر اخر عابه علي المفتش وهو تكليفه المساجين بواسطة صديقه ضابط السجن بقطع انواع معينة من انواع الاشجار القيمة الفاخرة من الغابات وهي محظور قطعها مثل انواع معينة من الصيد او

يسمح بذلك بتصريح خاص يحدد الكمية او العدد وذلك حفاظا علي هذه الانواع من الانقراض وكانوا ينقلون كتل هذه الاشجار بعربات الحكومة الي المنشار الحكومي الذي يتبع مصلحة الغابات وهناك تنشر الي الواح وتسوي ، وبعد حين ينقلونها الي ورشة النجارة بالسجن حيث تصنع منها اثاثات فاخرة يرسلها المفتش للبيع في الشمال ، وفي داخل السجن يوجد نجارون مهرة دخلوا السجن في مشاجرات في مجالس الشراب ولما يعرضون علي القاضي الذي هو المفتش كان يحكم عليهم باقصي عقوبة للسجن بحيث يمكثون في السجن اطول فترة ليصنعوا له الاثاثات التي يتجر فيها ، وانت تري انه لا يتكلف شيئا في تجارته في اللحم والجلود والخشب سوي ثمن طلقات الرصاص وكل شيء ما عدا ذلك يحصل عليه بلا مقابل – مجانا – باستغلال وظيفته الحكومية! وذات مرة وفي لحظة تجلي قال للعميد (الواحد هنا ما لاقي حاجة غير شوية الصيد والخشب ديل) ويا لها من (شوية) حاجات!

والشخصية الثانية المثيرة هي شخصية الخواجة نكولا الاغريقي صاحب المتجر والفرن ومحل الجزارة ومتعهد الغذاءات للمدارس والمستشفي فذلك الرجل كتلة من النشاط والجلد علي العمل ، فمن الصباح الباكر يضع في عربته (البكس) والتي يسوقها بنفسه الغذاءات ويحملها الي المدارس والمستشفي، ويقوم قبل ذلك بالاشراف علي العمال في الفرن ومحل الجزارة ثم بعد

ذلك يفتح متجره ويقوم بالبيع فيه حتي الساعة الواحدة بعد الظهر ، فيذهب الي منزله الملاصق لمتجره عبر باب في الدكان ، ويتناول غداءه ويرتاح قليلا ثم يرجع ثانية الي الدكان ويتولي البيع فيه حتي الغروب حيث يقفل المتجرويذهب الي منزله ويغير ملابسه ويذهب الي النادي حيث يلعب الورق ولعبة (الكنكان) التي يحبها وغالبا من يكون زميله في اللعب هو المفتش مقابل اثنين اخرين ، وذات مرة كان يجلس بجانب المفتش مهندس الاشغال واشار علي المفتش ليرمي كرت معين ولسوء حظه خابت المشورة وكسب الفريق الاخر ، وثار نكولا قائلا للمفتش (جنابك تسما (تسمع) كلام محمود ، محمود يضيأك (يضيعك) .. ومحمود هو مهندس الاشغال ، ونكولا يتميز بصراحة مستفزة وهو (دغري) ولا يعرف تزويق الكلام او المداراة ، وحدث ان شح دقيق القمح فاضطر الي صنع الخبز من دقيق البفرة فكانت رغيفة الخبز لينة رخوة واذا وضعت لمدة طويلة تسيل منها خيوط لزجة كالويكة. وذهب ضابط البوليس غاضبا الي نكولا وقال له (ده رغيف تأكلنا ليه يا نكولا، عايزينا ناكل الخمج ده؟) فاجابه نكولا بكل ثبات (ايوه تاكله ده دقيق بتاء (بتاع) حكومة بتاعك (بتاعك) وهو اداني دقيق ده) .. وعلي كثرة المتعهدين للغذاءات الذين تعامل معهم العميد في المدارس الداخلية كان نكولا واخر وطني امناء في تعاملهم لا ينقصون

الميزان ويوردون احسن الاصناف من الخضر واللحم والمواد الغذائية الاخري.

اما الشخصية الاخري فكانت سر تجار البلدة الشماليين وهو رجل حسن الهيئة حباه الله مالا كثيرا وعلما قليلا وكان يظن نفسه عالما بكل شيء وهو (اجهل من سمكة) كما يقول المثل ، ولماذا الصق الجهل بالسمكة هل لانه لا يعيش علي اليابسة حيث التعليم والتعلم؟ وكان من جهله انه يجادل ويغالط باستائية ان القرآن نزل مكتوبا علي اوراق الشجر والحجارة والعظام! والغي روح القدس جبريل والوحي!! وكان العميد يتجنبه ويفر من مجلسه فرار الجبان من القتال خاصة في ليالي السمر الاسبوعية التي يجلس فيها كل اربعة الي مائدة واحدة .. اما السلطان فكان فوق الستين من العمر اشيب الشعر تبدو عليه مخايل الحكمة والرزانة التي انضجتها خبرات السنين وكان يرتدي بدلة من الكاكي (وبرنيطة) فوق رأسه ، وكان الرجل (ليبراليا) في افكاره ومن هذا انه كان لا يكره ابناءه علي اعتناق دين معين وكان هو نفسه لا يدين بدين سماوي وكان لديه من الولد اربعة كل واحد منهم علي دين مغاير ففيهم المسلم والمسيحي علي مذهب الكاثوليك والمسيحي علي مذهب البروتستانت واللاديني .. كان هذا السلطان موكول له تحصيل الغرامات المالية التي تحكم بها محكمة السلاطين وان يوردها الي خزينة الحكومة ، ولكنه خان الامانة وبدلا من ان يورد

مبالغ الغرامات الي خزينة الحكومة وردها الي جيبه ، وانكشف امره ومثل امام المفتش والذي هو رئيس القضاة والذي يقوم بتعيينهم واقالتهم ، وعندما استجوبه المفتش قال دفاعا عن نفسه (جنابك مال بتاع غرامات ده زي صحن مزة فوقه فول مدمس قدامك .. انت تشرب وتقزقز منه) وكان جزاء (قزقزته) ان اعفي من سلطاته كلها واكتفي المفتش بذلك ولم يرسله للسجن ، وربما لان المفتش نفسه كان (يقزقز) من اشياء اخري علي نطاق واسع! وكما جاء سلفا فان المفتش لديه سلطات قاض من الدرجة الاولي وهذه تخوله حتي الحكم بالاعدام واخبر العميد بأنه عرضت عليه قضية قتل امرأة لضرتها وسينظرها بعد يومين ودعاه لحضور المحاكمة وحرص صاحبنا علي الحضور باكراً الي المركز حيث يوجد مكتب المفتش والمكتب واسع الارجاء تقع في نهايته مسطبة مرتفعة عن الارض وضع فوقها منضدة كبيرة للمكتب موضوع في مقدمتها قوالب من الخشب لوضع الملفات وبجانبها منضدة صغيرة مرتفعة عليها اثنان من التلفونات ويجلس المفتش علي كرسي كبير، وتحت المسطبة مباشرة يصطف علي الجانبين كراسي للجلوس ومناضد صغيرة امامها وهناك عدة دواليب خشبية ومعدنية لحفظ الاوراق والملفات وارضية المكتب مفروشة بسجادة كبيرة ولكن ما استرعي انتباهه حقيقة وهو في طريقه الي دخول المكتب سجين جالس علي مقعد بمقربة من شباك المكتب المقابل لمكان جلوس

المفتش ويشد السجين حبلا موصولا ببكرة الي قطعة كبيرة من القماش مما نطلق عليه (هبابة) وهذه الهبابة تتحرك جيئة وذهابا محركة الهواء فوق رأس المفتش اي انها تقوم بعمل المروحة الكهربائية وهذا السجين هو الطاقة المحركة او الكهرباء! ولا يتوقف الرجل عن هذا التحريك المتصل طيلة النهار وطيلة مكوث المفتش بالمكتب .. وهذه (الهبابة) المهولة من ابتداع الانجليز واحسب ان هذا المسجون فخور بهذه المهمة وهذا العمل فهو محرك هبابة المفتش وهذا شرف لا يدانيه شرف لان المساجين الاخرين يعملون اعمالا شاقة تحت هجير الشمس وغلظة السجانين! ويقف علي باب مكتب المفتش حاجب وعسكري للحراسة ، ولما دخل العميد رحب به المفتش ودعاه للجلوس وطلب له قدحا من القهوة (نسكافيه) ، وكان يجلس علي جانبيه اثنان من السلاطين كعضوي محكمة . وضغط علي جرس امامه وخف الحاجب ملبيا فامره بأن يأتي بالمرأة القاتلة ، وجيء بها ممسكا بها من ذراعها جندي وتحمل في صفحتها طفلة صغيرة واوقفها امام المسطبة وكان يقف الي جانب المكتب مترجم لينقل حديثها من لغة الدينكا الي العربية وكان منظر المرأة لا يشي بأنها قاتلة فقد كان يبدو عليها الوداعة والطيبة والمسكنة ، وسألها المفتش عن اسمها وسنها وطلب منها ان تقسم علي ان تقول الحق ، وهنا امسك الحاجب بحربة وقربها من فم المرأة فلحست بلسانها حديدة الحربة ورددت بعض

العبارات وسألها المفتش ان كانت مذنبة ام لا فاجابت بالايجاب ، وطلب منها المفتش ان تحكي الذي حدث ، وفي نبرات هادئة راحت تحكي قائلة ان زوجها تزوج عليها فتاة صغيرة وهجرها واستأثرت به الزوجة الاخري الصغيرة كلية وشق عليها ذلك فوضعت خطة للخلاص منها فاظهرت لها المودة والحب حتي اطمأنت لها وكذلك زوجها وفي اليوم الذي انتوت فيه تنفيذ خطتها دعت ضرتها للغداء معها وتمضية اليوم سويا والمبيت معها وانتهزت غياب الزوج في ذلك اليوم في قرية اخري لبعض شأنه،واستطردت تقول وفي الليل عندما اخلدا للنوم وتأكدت من استغراق ضرتها في النوم جاءت بعصا غليظة واهوت بها علي رأسها حتي هشمته ، وبعد الاستماع الي هذا الاعتراف الصريح تداول المفتش مع عضوي المحكمة ولم يأخذ منهم الامر طويلا واصدر القاضي المفتش حكمه باعدامها شنقا وهنا تناول السعكري الطفلة منها وامسك بها من يدها واخرجها من المكتب وخرجت معه في هدوء واستسلام مثلما دخلت في هدوء ولم تجزع ولم تضطرب ولكن برقت عيناها لحظة ثم خفضتهما.

تزجية الوقت

ما اكثر الوقت هنا ! وما اكثر ساعات البطالة وركود الحياة وتتابع رتابتها ، فلا شيء جديد ولا شيء مثير ولكنها حياة سهلة وادعة آمنة مطمئنة ، وخيل اليه ان هذا ما جبل عليه الانسان فان اتيحت له اسباب السعادة والهناء اصابه السأم والملل وان اصابته ضراء جأر بالشكوي والتبرم وخبرنا عن هذا الله سبحانه وتعالي في قوله (ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا) وهكذا تسير الحياة في اقاليم السودان وفي مدنه الصغيرة فان مظاهر الحياة تنتهي مع غروب الشمس فيقفل السوق وينفض الجمع وتسكن الحركة ويذهب الجميع الي دورهم ويتغشي الظلام البلدة فليست هناك انوار الكهرباء في الشوارع لانها لا توجد اصلا كهرباء ، ويذهب معظم الناس الي النادي الوحيد المجاور للسوق حيث ينفقون سويعات في لعب الورق وقليل من الرواد يلعبون الشطرنج واخرون يجلسون علي الكراسي الوثيرة يتجانبون اطراف الحديث او يستمعون الي الراديو ، وكان صاحبنا مولع بلعب الشطرنج وكان ضابط البوليس يصر علي ملاعبته رغم خروجه مهزوما في كل مرة ، ويحلو له ايضا (الونسة) في شتي الامور مع المفتش واخرين وهم جالسون علي الكراسي الوثيرة وكانت الجرائد المحلية لا تصلهم الا عدة مرات في الشهر او عندما يذهب احدهم الي

مدينة واو ويحضر معه بعضا منها يتداولونها بينهم باحتفاء وحرص ، ويبقي الراديو هو وسيلة اتصالهم الوحيدة بالعالم ولم تكن راديوهات الترانزستر متاحة في ذلك الوقت بل كان الراديو في النادي ضخما من الخشب وينتصب فوق منضدة عالية ويجري تشغيله ببطارية سائلة مثل بطارية العربة ، وكانت محطة اذاعة امدرمان ضعيفة الارسال ولا يسمعونها الا بمشقة ويخالط الصوت (شخشخة) لا يستبين الواحد منها الكلام ، ولذلك ربما يحصل حدث في الخرطوم او في انحاء السودان ولا يسمعون به الا بعد عدة ايام .. وقد سمع من البعض فيما بعد ان حدث في مدينة زالنجي وهي في دارفور في غرب السودان ان القوم في اواخر شهر اكتوبر من عام 1964 كانوا يعدون للاحتفال بثورة 17 نوفمبر وهو التاريخ الذي حدث فيه انقلاب ابراهيم عبود العسكري في 17 نوفمبر 1958 واشتعلت ثورة اكتوبر في العاصمة ومعظم مدن القطر لاجتثاث ذلك الحكم الدكتاتوري ، ولم يعلموا بها الا بعد ثلاثة ايام بينما كانوا منهمكين في الاعداد لعيد (ثورة) 17 نوفمبر او كما سموها الثورة المباركة او الثورة البيضاء!

وكان هناك البعض الذين يفضلون لزوم منازلهم واخرون يجتمعون علي الشراب .. اما في العصريات فكان بضعة من المدرسين والعميد والنظار يلعبون التنس وقد ترك السلف من الانجليز ملعبا ممتازا لهذه اللعبة التي كانوا مولعين بها ، وكان

المفتش من النظارة ولم يكن يلعب لالم ينتابه في ذراعه عندما يضرب الكرة بالمضرب وكان صاحبنا يذهب للعب التنس في عصر كل يوم ولكنه قد يتكاسل عن الذهاب الي النادي فيجلس في المنزل وينفق الوقت في القراءة.

من الاشياء الضرورية اللازمة هنا هي اقتناء معطف للمطر ومصباح يدوي يعمل بالبطارية والذي نطلق عليه اسم (بطارية) لان ظلام الليل دامس تزيد من دكنته السماء المغطاة بالسحب الدكناء وظلال الاشجار والحشائش الطويلة ولما في الارض من حيوانات وهوام تجوس ليلا واخطرها الثعابين ، اما المطر فانه ينهمر دون انذار ويتخلله هدير الرعود واحيانا قصف الصواعق، وكما ذكر صاحبنا في مكان اخر من هذا الكتاب انه كان يخاف الثعابين لتجربة عاشها في طفولته في مدينة القضارف في شرق السودان فهناك المطر ينهمر كالطوفان وتصحبه فرقعات الصواعق وقصف الرعود في اصوات تنخلع لها القلوب ، وقد وقعت صاعقة ليس بعيدا عنه ، واضيف الي الخوف من الثعابين الخشية من الصواعق ولقد رأي في حديقة داره في التونج شجرة ضخمة عالية من شجر العرديب استحالت الي كتلة سوداء وقيل له ان صاعقة ضربتها.

وفي لية قمراء برز بدرها ناصع البياض مسفر الاشراق متهللا كأنه جزل استخفته الفرحة وقبلت اشعته الحانية الاشجار واديم الارض فزانتها وزخرفتها بالضياء المصفي الرائق فتخالها

مختالة من الحسن الذي اسبغ عليها وفي هذا الجو الشاعري الذي غشي الكائنات بسحره حملت الرياح الوانية رجع غناء وصوت (نقارة) آت من قبل الغابة مما اغري صاحبنا ان يذهب ليشاهد ويستمتع حسيا وروحيا بعرس السماء وعرس الارض .. قمر بهيج واناس مبتهجون .. وركب السيارة منطلقا متتبعا اثر الصوت حتي وصل الي فسحة عريضة في الغابة ورأي الراقصين رجالا ونساء يشكلون دائرة ويرقصون وهم نصف عراة ويضربون الارض باقدامهم وقد لبسوا عليها خلاخيل تصدر اصواتا كالاجراس ويرفعون ايديهم عاليا فوق رؤوسهم راسمة شكل قرون ثيران الراقصين والفتيات كل منهن ترقص امام فتاهها مبرزة صدرها الناهد للامام ملقية يديها عالية للوراء ضاربات الارض بأرجلهن المغطاة بالخلاخيل والجميع يغنون بحماس فتسمع القوة والجمال في اصوات الرجال وتسمع الرقة والنعومة في اصوات الفتيات والاصوات متناغمة ومنسجمة مع بعضها البعض علي ايقاع (النقارة) واهتز صاحبنا واستخفه الطرب فخلع قميصه وصار بالرداء (شورت) ودخل الحلبة ورقص وقفز في الهواء مثلهم وحيته الفتيات بزغاريد مجلجلة واستمر الرقص والغناء مدة طويلة وكانت ليلة من امتع الليالي التي عاشها في عمره وعرف ان الرقص والغناء هنا يكون عادة في الليالي المقمرة..

امر اخر في هذه البلدة الصغيرة يسترعي الانتباه وهو انه لا توجد وسيلة نقل فالاهلين يسيرون علي اقدامهم مهما كانت المسافات بعيدة وهناك بعض الموظفين والحرفيين كالنجارين مثلا يمتطون الدراجات ، واما المصالح الحكومية فلكل منها عربة ولكن يستولي عليها رئيس المصلحة ويحتفظ بها في منزله ويستعملها استعمالا خاصا وتسمع اي واحد منهم عندما يتحدث عن عربة الحكومة يقول (عربيتي) وقد عمدت الحكومة علي الحد من هذه الظاهرة باصدار المنشورات التي تمنع استعمال العربات الحكومية خارج نطاق العمل ولكن دون جدوي ورأينا لاحقا المسئول الكبير كالوزير والمحافظ مثلا تخصص له ثلاث عربات بدلا من واحدة اثنان منهما فاخرة فارهة ثمن الواحدة منها يفوق ثمن عشرين عربة من العربات القديمة المتينة من طراز (الكومر) التي كانت مخصصة لكبار الموظفين او بالاحري للمصالح الحكومية في الاقاليم!

والحياة هنا تسير هادئة مستقرة علي وتيرة واحدة ولكن في العيدين والاحتفال (بثورة) 17 نوفمبر العسكرية يحدث تبديل وتغيير فسلطات المجلس الريفي تزين الشارع الرئيسي بالاعلام والاشرطة الملونة وكذلك الميدان الرئيسي الواسع المجاور للسوق والذي تقام فيه الاحتفالات والمناسبات وتصنع المريسة وتوضع في براميل كبيرة يشرب منها من يشرب ويمتليء الميدان بحلقات الراقصين وهم في ابهي زينة ولا نقول ابهي

حلل لان الواحد لا يرتدي سوي سروال قصير لا غير بينما يزين جسده بخطوط وبقع من الجير الملون بشتي الالوان يغلب عليها الاحمر والابيض والاصفر ويلبس حول عنقه قلائد من الخرز الملون (السكسك) وربما يتدلي البعض منها الي صدره ويلبس حول كلا من ذراعيه اسورة من العاج ويصبغ شعر رأسه بصبغة صفراء ، واما الفتاة فانها تلبس حول عنقها عقودا من السلكسك وتلبس غويشات من اسلاك النحاس حول يديها وتدهن بدنها بالزيت ، وتلبس خلاخيل في رجليها وتحلق شعر رأسها كله وتطليه بالزيت ، ويلحظ الواحد ان الرجل يفوق المرأة في التزين ويبدو اجمل منها، وقد نلحظ في الطبيعة ان ذكور الحيوانات اجمل من اناثها فالاسد اجمل من اللبوة والديك اجمل من الدجاجة والطائر الصغير (ودابرق) اجمل من (بت ابرق) انثاه ، والخروف والنعجة ، جمال في الشكل والتركيب ، ولكن جرت العادة ان تكون زينة المرأة ابلغ من زينة الرجل او هي الاحق بالتزين من الرجل ، ولكن تساوي الامر الان في الغرب فصارت زينة الرجل كزينة المرأة واخترعوا له كريمات ودهانات ومساحيق واصبح هناك موديلات Models او عارضوا ازياء من الرجال ، واختلطت الامور ، من الانثي ومن الرجل؟! وفي هذه المناسبات تجد كل حلبة رقص خاصة بافراد قبيلة معينة تماما مثل حلقات الذكر للطرق الصوفية في احتفال المولد النبوي ، وقد رأي صاحبنا احدهم يرقص ويغني

بمفرده خارج الحلبة وكان مهتاجا وكان منهمكا ومنغمسا في رقصته المثيرة ويضرب الارض بقدميه في قوة وكأنه سيخرقها ويفجر منها الماء ويشبه في ذلك الدراويش الذين نراهم في الذكر يدور الواحد منهم حول نفسه كالمروحة الكهربائية ويتلفظ بكلمات غير مفهومة ويقال عنه ان (يترجم) وقد استرعي ذلك الراقص المدهش انتباه جمع من الناس فوقفوا ينظرون اليه معجبين برقصه المتفرد.

واسترعي الانتباه ايضا ان المجذومين يضربونهم بقسوة حتي يضطرونهم للفرار ويطاردونهم الي داخل الغابة حتي لا يقتربوا من مكان الاحتفال .. واستنكر صاحبنا هذا الامر وتساءل عن السبب فاخبروه بأن المجذومين يدخلون ايديهم المبتورة الاطراف من الجذام في اواني المريسة فيعافها الناس ويتركونها لهم فيستأثرون بها ولذلك لا يمكنونهم من الاقتراب من مكان الاحتفال! وتساءل في نفسه (ماذا لو هيأت سلطات المجلس براميل من المريسة خاصة بهؤلاء البؤساء بعيدا عن الاخرين حتي يحسوا بالفرحة في العيد مثل باقي البشر؟) .. مر بنا آنفا ان الجرائم هنا لا تتعدي الشجار الذي يتسبب في الايذاء لاستعمال المتشاجرين الهراوات الضخمة وهي عصا قصيرة في مقدمتها ما يشبه الكرة من الخشب المصمت وينتهي مقبضها بطرف حاد يمكن ان يستعمل في الطعن وفي المشاجرات الكبيرة بين الاعداد الكبيرة ربما تستعمل الاسلحة البيضاء ولكن

هذه نادرا ما تحدث ولذلك تجد الاغلبية العظمي من نزلاء السجن هم من المحكومين في قضايا الشجار ، وهم في داخل السجن وخارجه يعملون في اعمال مفيدة منتجة كالنجارة والزراعة وتباع منتوجات السجن في السوق وتوجد في سجون المدن الكبيرة ورش كاملة لمختلف الحرف كالنجارة والحدادة والخراطة والاحذية ونسيج السجاجيد ، وفيها يتعلم السجين حرفة تعصمه من الرجوع الي الاجرام وتفتح له ابواب الكسب الشريف ، وفي الحقيقة نظام السجون في السودان متقدم جدا وحق عليه القول تهذيب واصلاح وليس تعذيب واذلال .. وهناك نوع من المساجين يسمونهم (المضامين) والمضمون ويسمي هنا (دوّر براه) هو سجين لمدة طويلة نوعا ما ولكنه اثبت في المدة التي قضاها في السجن حسن السير والسلوك ، وهذا النوع من السجناء يؤجرونهم لكبار الموظفين للخدمة في بيوتهم في النظافة وغيرها.. وربما الغي هذا النظام الان .. والسجين الذي يحظي بهذه المعاملة يكون سعيدا لانه لا يكلف باعمال تشق عليه طيلة اليوم ولأنه يأكل من طعام اهل المنزل ، ولأنه لا يبيت في السجن بل يذهب للسجن في اول المساء (للتمام) اي اثبات وجوده ثم يعود للمنزل ليبيت فيه ، وكان مع العميد احدهم (دور براه) سجن في مشاجرة وهو رجل فارع الطول كنخلة لطيف بشوش الوجه يسمي (انوي) وتعني بلغة الدينكا (المرفعين) اي الذئب وكان العميد يدفع للسجن نظير ذلك

عشرين قرشا شهرياً! وكان (انوي) اذا فرغ من عمله يغني ويرقص او يجلس مع الطباخ في المطبخ يساعده في عمله ويناوله الاشياء وكان الطباخ وهو من قبيلة اخري يتقن لغة الدينكا ويتولي الترجمة بين العميد وانوي ، وفي الليل كان يحرس المنزل ويظل صاحيا حتي يعود العميد وزوجته من الخارج ، ولأول مرة فتح لهم انوي الباب وقد خلع ملابس السجن المكونة من قميص وسروال وبدا عاريا كما ولدته امه .. وفي الصباح طلب العميد من الطباخ ان يقول له ان يلبس علي الاقل سرواله عندما يفتح الباب له واذا اراد بعد ذلك ان (يتحلل) من اللباس فله مطلق الحرية في ذلك عند ذهابه للنوم .. وكان انوي يحضر من السجن نصيبه من (الجراية) كل يوم وهذه قطعة جامدة من عجين الذرة علي شكل مخروطي وكان يفتتها ويضعها فوق برش تجف في الشمس ثم يجمعها وعندما تصير كمية يأخذها ليبيعها للنساء اللاتي يصنعن المريسة.

وكان هناك سجين اخر احضر من قرية اخري الي السجن وتبعته امرأته وابنته وابتنيا لهما قطية (كوخ) من القش قريبا من بيت العميد حتي تكونا قريبتين من الاب وكانت البنت تذهب كل يوم لتزور اباها مارة في طريقها عبر حديقة منزل العميد لتقصر المسافة وكان ينبيء عن مجيئها صوت خلاخيلها في رجليها ولها ايقاع موسيقي راقص وكانت الفتاة صاحبة الخلاخيل رائعة تقاطيع الجسم صبيحة الوجة حليقة الرأس بالموسي

وبشرتها ملساء لامعة كزيتونة سوداء يزين صدرها نهدان كصاروخين مشرعين للانطلاق تذكران المرء ببيت شعر الشابي:

كل شيء موقع فيك

حتي لفتة الجيد واهتزاز النهود

ويطوق جيدها عقدان من السكسك (الخرز) وكان كل ما ترتديه قطعة من القماش حول خصرها الهضيم يغطي منها موطن العفة .. وذات مرة رأي السائق يقتفي اثرها ويناديها فوقفت له وامطرته بكلام شديد انطلق من فيها كطلقات المدفع الرشاش وكادت ان تضربه وهو يتراجع للوراء ، وقدر العميد ان الفتاة في جواره وحق عليه حمايتها فتحدث مع السائق بعد ذلك وطلب منه ان يتركها وشأنها وان لا يتعرض لها حتي بالقول .. وفي مرة علي سبيل الدعابة سألها ان كانت تتزوجه فأومأت برأسها موافقة وقال لها انه سيعطيها مهرا مالا كثيرا ، فهزت رأسها رافضة بكل تأكيد واشارت الي حظيرة ابقار المعهد علي مبعدة من دار العميد ونطقت بقول (فقّر فقّر) اي بقّر بقّر لانهم ينطقون حرف الباء فاء وقال لها انه لا يمتلك بقرا ولكن سيعطيها نقودا بدلا من البقر ، ولكنها رفضت بكل اباء وشمم .. والعرف هنا ان يدفع طالب الزواج المهر اعدادا من البقر لوالد الفتاة ولذلك البنت هنا جالبة للثروة لابيها عند زواجها بما يدفع لها من ابقار تضاف الي بقره وتكثره فيزداد وجاهة وثراء

فمقياس الثروة والمكانة الاجتماعية الرفيعة هي مقدار ما يمتلكه الفرد من ابقار ويتبين ذلك عندما تري رجلا يلبس حول عضديه اساور عريضة من العاج فهذا دليل علي كثرة ما يمتلك من ابقار وهذا يماثل من تراه في المدينة يستقل سيارة لاندكروزر او مرسيدس او يسكن قصرا منيفا .. اما الامر الذي لم يفهمه فهو انه عند طلاق الرجل لزوجته فانه يسترد الابقار التي دفعها كمهر وان حدث ذلك بعد سنوات من العشرة الزوجية .. ولست ادري ان كانت هذه الممارسة قائمة حتي الان؟ .. فقد تقلصت او كادت تنقرض عادة خلع الاسنان وتشليخ الجبهة.

وبعد شهرين خرج والد حسناء التوج كما اسماها العميد من السجن فافتقدها الجميع وانقطع ذلك الصوت الرنان المعجب لوقع اقدامها ذات الخلاخيل منبئة عن ظهورها الجميل وهي غادية رائحة في طريقها الي السجن لرؤية ابيها عبر حديقة بيت العميد.

نذر الخطر

تلقي العميد دعوة رسمية من الحاكم العسكري لمديرية بحر الغزال لحضور احتفالات افتتاح مجلس المديرية والذي اختيرت مدينة رمبيك مكانا له والمجلس عبارة عن برلمان مصغر للمديرية وستجري الانتخابات لعضويته هناك ثم تعقد جلسة الافتتاح بحضور حاكم المديرية العسكري وكل رؤساء الوحدات الحكومية بالمديرية والسلاطين وكانت المناسبة فرصة طيبة للتعرف علي هذه المدينة الكبيرة والتي تلي واو في اهميتها وتوجد بها المدرسة الثانوية للبنين الوحيدة في كل الجنوب ..

وخرج صاحبنا مبكرا في ذلك الصباح الخريفي وكان الصبح طيب الهواء في نداوة والازهار بالوانها الجذابة في الحديقة يتفاوح اريجها والسماء حبلي بسحب دهماء مبشرة بالغيث ، واعتلي العربة (الكومر) الي جانب السائق ميممين صوب مدينة رمبيك وتستغرق الرحلة اليها زهاء الساعتين والطريق شريحة وسط الغابات الكثيفة وتحفه من الجانبين علي مدي البصر الحشائش الطويلة التي ترتفع الي ما فوق قامة الانسان وما ان تحركوا بضع كيلومترات حتي بدأ رذاذ من المطر في الهطول وشعر بخدر لذيذ بفعل الهواء المنعش والمناظر الخلابة واغفي في سنة من النوم افاق منها منزعجا علي توقف العربة بغتة وسأل السائق عن الامر واجابه (جنابك شوف قدامك هناك في

شنو) واشار بيده نحو الامام ، ونظر وعلي بعد خمسين مترا تقريبا رأي اسدا راقدا متمددا علي الطريق ، واحس بخوف وبرغم ذلك كان مأخوذا بمنظر هذا الهزبر الرابض امامهم ، فعهده بالاسد الذي شاهده داخل القفص في حديقة الحيوان بالخرطوم صغير الجثة هزيلا وربما كان الحارس يقاسمه قوته من اللحم! اما هذا الماثل امامهم فشيء اخر فهذا الاسد عملاق ضخم الجثة عظيم الهامة غزير الجمة لبدته كأنها شجرة تشابكت اغصانها واوراقها وعيناه كرتان من الجمر ، وخال انه اذا ضرب الكومر بيده العظيمة لانطبق الحديد او لشطره اثنين وكان اول سؤال وجهه للسائق هو: هل من نجاة من هذا الوحش المارد؟ وطمأنه بأن الاسد لا يهاجم الانسان الا اذا بدأه بالعدوان او اذا كان جوعانا علي النقيض من اللبوة التي تفتك بالحيوان والانسان دونما استفزاز وقال له ان يصبرا وينتظرا حتي ينصرف الاسد من تلقاء نفسه .. وأبطل السائق محرك العربة وجلسا ساكنين وصاحبنا يخال انفاسه تتلاحق حارة كبخار متصاعد من مدخنة القطار القديم ويحسب ان وجيب قلبه في قوته اصوات نوبة ضاربها منجذب هيجه الوجد ، واستوثق ثانية من السائق عما قاله من طبع الاسد فأكده له ودخل شيء من الطمأنينة الي نفسه واستحضر ما يحفظه من القرآن من سور وايات يتحصن بها وتقاطعت في ذهنه شتي الاحتمالات فلا يدري ما يدور في جمجمة هذا الوحش وماذا اذا غير من طبعه

وحذا حذو لبوته في اللؤم والافتراس؟ وهل معدته الان ممتلئة ام خاوية؟ يخيل اليه انه شبعان مسكتفي ويبدو ذلك من اضطجاعته المتراخية الكسلي ولكن علي اسوأ فرض هل ستكون منيتهم علي يد اسد؟ لا بأس! لئن يموتون بين براثن ملك الغابة اكرم من ان يموتوا علي ايدي الضباع او الذئاب وعلي كل حال تنوعت الاسباب والموت واحد ..

وان لم يكن من الموت بد

فمن العجز ان تموت جبانا

واخذ يشد من ازر نفسه الوجلة بهذه المقولات ليحثها علي الثبات (والصقر ان وقع كتر البتابت عيب) وظلت اعينهم معلقة بهذا الوحش الرابض امامهم ترقبه في اهتمام وخشية ، وسارت الدقائق بطيئة كبطء المتكاسل المتشاغل عن العمل .. ياالله! هل توقف الزمن ام تسارع خوفنا ولهفتنا للخلاص؟ وبعد ما يقرب من ثلث ساعة من الزمن خالها ساعات بل يوما بطوله قام الاسد وتمطي .. يا الهي! اهذا اسد ام حصان في هيئة اسد؟ هذا العلو وهذه الضخامة وهذه المهابة تملأ ناظري المرء اعجابا ورهبا .. ومشي الاسد بتؤدة وعظمة ونظر تجاههم نظرة طار منها قلب صاحبنا فزعا ، ثم سار في طريقه ولا يدري اكانت نظرته تلك استخفافا بهم ام شفقة عليهم؟ ودخل الحشائش الطويلة وابتلعته الغابة وردت الروح فيهم ولكنه تلبثوا في موضعهم وقتا حتي اطمأنت قلوبهم وايقنوا ان ملك الغابة لن يرجع ثانية ..

ثم ادار السائق العربة واستأنفوا الرحلة الي رمبيك ، واسترخت الاعصاب المشدودة واخذ صاحبنا يدخن لفافة اثر اخري بتلذذ واضح ولم يتحرج من اعطاء السائق سجارة ولكنه رفضها تأدبا وقال انه لا يصح ان يدخن امامه ولم ينقطع المطر من التهطال الا لفترة قصيرة ثم يعاود النزول مرة اخري تارة بشدة وتارة اخري برفق كبطش الغريم بغريمه او كحنو الحبيب لحبيبه .. ولم يروا في طريقهم انسيا ولا حيوانا سوي الاشجار الكثيفة المورقة الخضراء والمياه الدفاقة من السماء والجارية علي الارض وبعد مسيرة اكثر من ساعة مروا علي قرية شوبيت ويميزها وجود كنيسة ومدرسة قريبا من الطريق رائعة البنيان وتتميز بطلائها الابيض من الخارج وبدت شيئا غريبا وسط هذه الادغال وسيرتبط اسم هذه القرية مستقبلا باغتيال الزعيم الجنوبي وليم دينق الذي اغتيل فيها وكان رئيسا لحزب سانو والذي كان يدعو للفدريشن اي الاتحاد الفدرالي بين الجنوب والشمال ولا ندري اليد الاثمة التي اغتالته ولم يكشف النقاب حتي الان عن قتلته ولكن ما يدعو للحسرة والاسي والتوجع انه لو كان استجيب لمطلب الفدرالية منذ ذلك الوقت كما وعد الساسة الشماليون لقفلنا ابواب الجحيم التي انفتحت علي بلاد السودان من حرب اهلية ما زال اوارها مستعرا فقدنا فيها ما فقدنا من ارواح غالية وسكبنا فيها دماء عزيزة وانفقنا فيها اموالا طائلة وغذينا حزازات وضغائن وثأرات وخربنا

بلادنا بأيدينا .. والنتيجة اننا قبضنا الهواء! واصبحنا الان وقد وافقنا علي تقرير المصير للجنوب بين خياري الوحدة او الانفصال ويحدث هذا بعد اربع واربعين سنة منذ ان نادي وليم دينق بالفدرالية التي تحفظ كيان الوطن الواحد ... وما زلنا نحرث في البحر.. واقتربنا من روميبك وكانت تأتينا اصوات النقارة وتزداد علوا كلما اقتربنا من رمبيك وفي مشارف المدينة خلب انظارنا مرأي عشرات حلقات الرقص الصاخبة وقد ارتدي الراقصون خير زينتهم من عقود من السكسك الملون واساور وخلاخيل من اسلاك النحاس والعاج ، ودهنوا اجسامهم بالزيت ونقشوا عليها اشكال من البقع بالالوان الحمراء والبيضاء والصفراء واخرون توشحوا جلود الفهود والنمور واتخذوا منها طواقي في الرؤوس وجماعة يؤدون رقصة الحرب وحرابهم مشرعة الي عنان السماء تبرق وتلمع في اشعة الشمس والارض تهتز تحت وقع اقدامهم والهواء يرتج من هدير اصواتهم الحماسية ، وتمثل صوت صاحبنا قول الشاعر في وصف الجيش اللجب

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا

واسيافنا ليل تهاوي كواكبه

ولكن هنا الكواكب المضيئة في الرماح المشرعة لا تتهاوي ولكن تعلو وتنخفض في الجو .. وكانت حلقات الرقص تمثل جميع القبائل التي تقطن المديرية واكثرها حلقات قبيلة الدينكا

بأفرعها المتعددة فهؤلاء دينكا اقار قاطنو رمبيك وهؤلاء دينكا اتويت ودينكا ثيت و.. و.. وهؤلاء الجور والبونقو وكانت هذه الحشود الراقصة تقطر منها البهجة والحبور واصوات الغناء تعطر الجو ان صح التعبير ودقات النقارة وضرب الارض بالاقدام المحجلة تجعل المرء يتحرك في طرب رغما عنه وقد يتحرك الجماد ان كان يشعر واستقبلهم في مدخل المدينة مدير المدرسة الثانوية الاستاذ الكبير محمد الامين كعورة ورحب بهم ووكل بهم احدهم ليدلهم ويأخذهم الي مقر استضافتهم حيث ينزلون واخذهم الي منزل ضابط المجلس الحكومي الذي اعد للضيوف مع منازل اخري ، وبعد قليل حضر ضابط المجلس الجنوبي من الخارج ورحب بهم اجمل ترحيب وعرفهم بنفسه واسمه تيتو ادبو وتزين جبينه (فصادة) الشلك ، ثم احضروا لهم العصائر الباردة واتبعوها بافطار شهي وكانوا ستة من الضيوف في المنزل كل اثنين في غرفة والمنزل والاثاث والاكسية في غاية النظافة والنظام وعين لهم خادمان لخدمتهم ، وامدوا كل واحد منهم بورقة مطبوعة عليها برنامج الاحتفال وكان البرنامج مـمتلئـا بالحفلات والاستقبالات ومن ابرز نقاطه اجراء الانتخابات في نفس اليوم واعلان النتيجة ثم انعقاد الجلسة الاولي بقاعة المديرية والقاء خطاب الحاكم العسكري ، وفي المساء يلبي الضيوف دعوة العشاء الكبير الذي يقيمه مفتش الحكومة المحلية بداره وفي اليوم التالي يتفرج الضيوف علي

حلقات الرقص المختلفة يليها في العصر يوم رياضي في الميدان الكبير بالبلدة لمختلف الالعاب الرياضية والالعاب الشعبية ثم يبدأ في المساء ليلة مسرحية تقدم فيها فرق القبائل المختلفة اغانيها ورقصاتها ، وقد اقيم مسرح ضخم في الساحة وانير المسرح والساحة بالانوار الكهربائية والتي زودت بها من المدرسة الثانوية التي لديها مولد كهربائي .. وكان الضيوف يتناولون وجبات الطعام في اماكن اقامتهم وكان الطعام جيدا وشهيا وبكرم مبالغ فيه علي عادة السودانيين وكان كل شيء معدا بدقة وامتياز. وقال العميد ان البلدة كلها كانت في حالة فرحة طاغية وكأنه العيد ، وكان العرض علي المسرح في اليوم التالي بالغا حد الروعة ، وبينما الكل في انسجام يتابعون العرض بتشوق انطفأت فجأة جميع الانوار في المسرح والساحة ولم تمض سوي دقائق حتي احضروا رتائن اضاءت المسرح وجنبات الساحة واستمر العرض مما يدل علي تأهبهم وتحسبهم لاي طاريء وهو برهان اخر علي حسن الاعداد والتنفيذ وهو لا يستغرب من ذلك فالرجل القائم علي رأس هذه العملية مفتش الحكومة المحلية الهمام صلاح قرشي ويذكر له العميد من قبل ان كان لديهم بالتونج مدرستان جاءتا من الشمال منقولتان الي رمبيك تنتظران في التونج وسيلة مواصلات لتحلمهما الي هناك، وصدف ان كان المفتش قرشي عائدا من واو في طريقه الي رمبيك والذاهب اليها لابد ان يمر بالتونج التي تتوسط الاثنين

وحدثه عن المدرستين ورحب بأخذهما معه ولما كانت عربة الكومر لا تستوعب غير اثنين من الركاب في الامام مع السائق فقد امر المفتش السائق بأن يركب في صندوق العربة في الخلف وقام هو بقيادة العربة الي رمبيك واجلس المدرستين في المقعد الامامي .. وقال العميد ان الحفل الممتع استمر وانفض قريبا من منتصف الليل وذهب الجميع منتشين ، وكانت ليلة من ليالي العمر التي لا تنسي ، وعندما وصلنا الي المنزل وجدنا حارسين من الجنود بسلاحهما علي باب المنزل ولم يكونا موجودين قبل ذلك وشعرنا بشيء غير عادي وسألنا مرافقنا عن الامر فأجاب انه كانت هناك خطة وضعها المتمردون للهجوم علي مكان الحفل وابادة كل الموجودين من الحاكم العسكري والمسئولين الحكوميين ولكن قوة الجيش كشفت المؤامرة في اللحظات الاخيرة واحبطتها وقبضت علي المتآمرين وكان قطع الكهرباء بداية لتنفيذ العملية ، فقد قطعوا سلك الكهرباء الموصل من المولد بالمدرسة الي مكان الحفل.

النذر

كما تتجمع قطع السحب الشهباء وتصطف في جماعات بين قصف الرعود ولمعان البروق واعدة بالغيث المنهمر كذلك تلتقي الاخبار من كل مكان بضعة بضعة مختلفة الاسلوب مجمعة علي امر واحد ربما يكون صدقا او كذبا ولكن تصدقه الاحداث حينما تقع وعند ذلك يكون الناس في حيرة وترقب وخشية وقلق من المجهول وصار الناس يتناقلون الاخبار عن هجوم وشيك يقوم به المتمردون علي التونج .. من هم المتمردون؟ قبيل الاستقلال لم تكن هناك حركة سياسية جنوبية فاعلة وكان بعض المتعلمين الجنوبيين يلتحقون بالاحزاب السياسية الشمالية الكبري وبعد ذلك تكونت احزاب جنوبية من المثقفين والمتعلمين الجنوبيين اهمها حزب سانو وجبهة الجنوب وحزب الاحرار وكانت هذه الاحزاب ينادي بعضها بالفدرالية للجنوب وبعضها ينادي بالانفصال عن الشمال ، ونتيجة لعدم وفاء الساسة الشماليين بوعودهم للجنوبيين بتحقيق الفدرالية ولاسباب اخري تاريخية واجتماعية وعرقية لا مجال لذكرها هنا لجأ قسم من الجنوبيين الي السلاح والتمرد علي الحكومات القائمة ، واصبحنا نسمع عن تنظيم عسكري جنوبي يدعي (انانيا) ومعناه الافعي السامة ويسعي هذا التنظيم لطرد الشماليين بالقوة من الجنوب وتكوين حكومة جنوبية مستقلة في الجنوب .. وما حدث في

رمبيك من محاولة لقتل كل المسئولين الشماليين والجنوبيين والتي اجهضت كانت ارهاصا لما سيحدث مستقبلا في اماكن اخري في الجنوب .. وتناقل البعض اقاويل يزعمون ان مصدرها المتمردون يحذرون من هجومهم الوشيك علي التونج وان لديهم اسلحة جديدة لا تمتلك الحكومة مثلها ، ويمكن ان ندرج ذلك في الحرب النفسية لبث الرعب في قلوب اهل التونج ولكن هذا القول فيه شيء من الحقيقة فان قوة البوليس كانت محدودة العدد يقودها ضابطان احدهما برتبة ملازم اول والثاني برتبة ملازم ثان والقوة مسلحة ببنادق (ابوعشرة) وهي بنادق تسع خزنة الواحدة منها عشر طلقات وهي ليست آلية ومن مخلفات الحرب العالمية الثانية والاسلحة الالية الوحيدة لديهم هي مدفعا رشاش (برن) ومدفع (استن) وهي ايضا من مخلفات الحرب العالمية الثانية ، وهناك قوة صغيرة من جنود السجن والسجانين مسلحين ببنادق (اب خمسة) العتيقة والبندقية الواحدة تحمل في خزنتها خمس طلقات ، ولم تكن توجد قوة من الجيش في التونج .. وازاء تلك الاقاويل والشائعات اجتمع كل الشماليين الموجودين في التونج من مدرسين وتجار وموظفين وعددهم زهاء الخمسين فردا تقريبا في منزل احد التجار وتدارسوا الوضع وقدروا انه توجد خطورة علي ارواح الشماليين وعائلاتهم مما يستدعي وجود قوة من الجيش للدفاع عن البلدة والسكان لا سيما ان القوة الموجودة من البوليس

وجنود السجون ليسوا مؤهلين للقتال وهم اصلا قوات غير مقاتلة واضف الي ذلك ضعف تسليحهم، واقر الاجتماع ان يجتمع نفر منهم بمفتش الحكومات المحلية وان يستفهم منه عن حقيقة الوضع وان يرسل المجتمعون برقية عاجلة للحاكم العسكري لمديرية بحر الغزال في واو بصورة منها لمفتش الحكومات المحلية بالتونج وصورة لوكيل وزارة الداخلية بالخرطوم وتطالب البرقية بوجود قوة من الجيش بالتونج واتخاذ الاحتياطات اللازمة ازاء ما يتردد عن الهجوم الوشيك علي التونج ولم يتيسر الاجتماع بالمفتش لانه كان في مهمة رسمية في مدينة واو ، ولكن ارسلت البرقية الي كل الجهات المعنية المذكورة انفا ، وعلم لاحقا ان الحاكم العسكري استدعي المفتش وسأله عن الحالة في مركزه فرد عليه بأن الحالة طبيعية ومطمئنة وان الذين بعثوا بالبرقية مذعورون بدون داع.

ولم ير او يحس الناس تغييرا او استعدادا من الناحية الامنية ولم تزود البلدة بقوة من الجيش مما زاد التوجس وضاعف المخاوف وران علي الجو والمشاعر بين عامة الشماليين نوع من الخشية والترقب وكما يقول المثل العامي (كتلوك ولا جوك) اي وقوع المكروه خير من ترقبه. واكتنفت الحياة غيوم سوداء من الخوف من المجهول الاتي وصار الحديث كله او معظمه عن الانباء الجديدة عن التمرد او القديمة مع اجترارها.

الهجوم

واخبرني العميد بأن نمط حياتهم او الروتين اليومي لم يتغير فظلوا يلعبون التنس عصر كل يوم ثم يعودون في المساء الي النادي ، وفي يوم بعد ان عاد من اللعب الي المنزل ليغير ثيابه ويذهب الي النادي امطرت السماء رذاذا فتكاسل وصرف النظر عن الذهاب وعزم ان يلزم المنزل وان يقضي الليلة في القراءة وبخاصة انه كان قد بدأ المطالعة في رواية مشوقة .. وتوقف المطر وانجلت الغيوم عن سماء صافية الاديم وعن قمر كان بدرا فأضاءت الارض بفيض من النور احتضن الارض في رفق وحنان ونشر الوية بيضاء من الجمال علي الكون تبعث المسرة في النفوس وكان اليوم هو الاربعاء 1964/8/19 وفي تلك الليلة التي بزغ فيها البدر ناشرا ضياءه الفضي اللامع علي الارض وسكن فيها الناس والحيوان وكان المتسامرون في النادي يتناولون احاديث مشفقة وكان اللاعبون منهمكين في العاب الورق والشطرنج واخرون جالسين في استرخاء علي المقاعد الوثيرة يستمعون الي الراديو خرق السكون الساجي طقطقات الرصاص وهدير القذائف وكأن بركانا انقلب رأسا علي عقب في الفضاء وصب جام حممه علي الارض وصار الناس يجرون لاتذين بأي ملجأ او مكان ينجيهم من الموت الاعمي النازل عليهم والذي لا يفرق بين رجل وامرأة او شيخ

وطفل ، وتشتت رواد النادي وجلهم قفز من سور النادي القصير وعموا عن بوابة الخروج وجاء رجل جنوبي جاريا كالاعصار مارا بمنطقة المعهد والتي تبعد عن منطقة السوق ومركز الشرطة حيث تركز الهجوم وكان الرجل متجها الي الغابة للاحتماء بها وصاح الناس به سائلين عن الخبر فاجاب وهو يركض (حصل كلام بتال جوه البلد) واستمر اطلاق النار عدة ساعات وكان قد بدأ في الساعة السابعة مساء وكان هدف المهاجمين الاستيلاء علي مركز الشرطة اولا ولذلك ركزوا الهجوم عليه ، وكان يقاومهم بالمدفع البرن الوحيد عريف (امباشي) من البوليس ولم يمكنهم من الاقتراب من المركز مع انه اصيب في فخذه وكان معه بضعة جنود واما الضابط الاول فانه ركب عربة المركز اللاندروفر واختفي ، واما الضابط الاخر فانه كان بمنزله ولم يستطع الوصول الي المركز ، وكان المتمردون قد قطعوا اسلاك التلفون ليعزلوا التونج عن بقية المديرية وعن العاصمة واو لكن شاءت عناية الله ان يقطعوا الاسلاك الخطأ وهي الاسلاك الداخلية في المدينة وبقي السلك الموصل لواو سليما ولذلك كان الموجودون في مركز البوليس علي اتصال دائم بواو واخبروهم بالهجوم وظلوا يوالونهم بتطورات الموقف اولا بأول وطمأن المسئولون في واو المدافعين بأن النجدة في طريقها اليهم وطلبوا منهم الثبات حتي تأتيهم النجدة.

وكان العميد في صالون منزله يقرأ عندما سمع اصوات مكتومة شبيهة بصوت قرع الجلد بعود جاف (طق طق) وسألته زوجته عن هذا الصوت فاجابها بأن الرعاة في حظيرة الابقار التابعة للمعهد والقريبة من المنزل ربما يكونون يعالجون شيئا يصدر منه هذا الصوت ولكن الاصوات صارت اقرب اليهم واكثر وضوحا وعرف انها اصوات رصاص وقطع الشك باليقين عندما مرت طلقتان تصفران بجانب النملية المحيطة بالدار واقترب لطلاق الرصاص اكثر وصار يتتابع كأنه من سلاح آلي فهب العميد واقفل ابواب النمليات بالترابيس من الداخل وكذلك ابواب ونوافذ المنزل واطفأ الرتينة في الصالون والمصباح في غرفة النوم والاخر الموجود في المطبخ ، وطلب من زوجته ان تلزم السكوت والهدوء ورقدوا علي ارض الحجرة اتقاء للطلقات ان خرقت النوافذ المطلة علي النمليات، وطلبت منه زوجته ان يذهبا وينضما الي المعلمين وذلك لان منزلهم كان منعزلا عن بقية بيوت المعلمين بنحو كيلومتر او اكثر والطريق بينهما تكتنفه الاشجار والحشائش الطويلة ، فقال لها ان ألأمن مكان لهما الان هو داخل المنزل وان خرجا من المنزل كانا صيدا سهلا لا سيما وان المسافة بين منزلهم ومنزل المدرسين ليست قصيرة واخبرها ان المتمردين لن يقتحموا المنزل المغلق خوفا من ان يكون لديه سلاح وقد بدا ان الذي يهاجم المنزل شخص واحد لان اطلاق الرصاص كان يصدر من جهة واحدة ومتقطعا وقد

صدق هذا الظن لاحقا مما سيجيء ذكره ، وحقيقة لم يكن العميد يمتلك سلاحا من اي نوع وحتي العكاز لم يكن بالدار ، وسلم امره لله وبالرغم من الخوف الشديد الذي احسه ورغم وجيب قلبه متسارعا ويضرب كالطبل كان ذهنه صافيا وتفكيره منتظما وكان يفكر في شتي الاحتمالات واوصله تفكيره الي الخوف من التمثيل به او الاعتداء علي زوجته ، ورغم ايمانه العميق اسلمه الموقف اليائس الي ان الموت بيده اكرم من الموت بأيدي المتمردين (بيدي لا بيد عمرو) وكان لديه زجاجة مليئة بمبيد سام قاتل للحشرات وقر رأيه علي ان يسقي منه زوجته اولا ثم يشرب منه هو حتي لا يقعا في يد المتمردين.

عجيب امر الانسان يحتويه الخوف ولا يخاف ان يقتل نفسه وربما يفسر هذا الفرق بين الخوف والجبن ، فالجبان لا يقدم علي شيء فيه ايذاء به بأي شكل من الاشكال . وبينما هو في خضم هذه الافكار قل صوت الرصاص وتباعد شيئا فشيئا ثم صمت ، وكان الوقت يقترب من منتصف الليل وارجأ تنفيذ تدبيره وظل مترقبا انبلاج الفجر وحلول النهار.. وفي الصبح الباكر سمع اصوات تناديه من خارج المنزل (يا عميد يا عميد) وقام ليستطلع المنادين وقالت له زوجته في اشفاق ان يتوقي الحذر وان لا يخرج للمنادين فربما يكونون من المتمردين، ورد عليها بأن اصوات المنادين هي اصوات شماليين وانه سيتأكد من ذلك بفتح النافذة في فرجة صغيرة يري منها، وفعلا فتح النافذة

الكبيرة بحذر ورأي جمعا من مدرسي المعهد خارج المنزل ، وفتح النافذة علي مصراعيها ورد عليهم بلهفة وشوق وخرج من الدار واحتضن الجميع وكل واحد منهم يكاد لا يصدق انه نجا (وحمدل) وحمد الله السلامة بعضهم لبعض ، وصحب زوجته لتنضم الي عائلات المدرسين ومن هناك ذهبوا جميعا الي منتصف البلد في منطقة السوق ومركز البوليس حيث تركز الهجوم ، فوجدوا افرادا من الجيش والشرطة وعساكر السجون منتشرين في الطرق والاماكن المهمة في البلدة يحرسونها ومن هناك ذهبوا الي المستشفي حيث يوجد جريحان من الشرطة ويوجد في المشرحة 6 من جنود الشرطة و5 سجانة و2 جلابة وجثتان للمتمردين ، وكانت تلك حصيلة الليلة من القتلي والجرحي ، وعرفوا تفاصيل الهجوم في الليلة الفائتة عندما هجم المتمردون علي مركز البوليس واخذ الجنود الموجودين يتبادلون النيران معهم وبخاصة (الامباشي) العريف شرطة بمدفعه البرن بالرغم من اصابته بنشاب في فخذه فقد كان يصحب المتمردين المسلحين بالاسلحة النارية جماعة من حاملي الحراب والنشاب (السهام) واستمر تبادل اطلاق النار الي الثانية عشرة ليلا عندما جاءت قوة النجدة من الجيش من مدينة واو ودحرت المتمردين الذين فروا تاركين وراءهم اثنين من القتلي ولم يحققوا هدفهم من الاستيلاء علي مركز البوليس ومن ثم علي مدينة التونج وقد طاردتهم قوة من الجيش ولكن لم تلحق بهم.

وفي المستشفي حيوا الامباشي البطل والذي لم يمكن المتمردين من الاقتراب من المركز باصلائهم نارا من مدفعه الرشاش ورغم اصابته بجرح في فخذه ونزيف دمه .. صورة رائعة للاستبسال .. وطلب الطبيب مساعدين متطوعين ليفحص الجثث في المشرحة وتطوع العميد مع اخرين ولكنه عندما دخل الي المشرحة ورأي الجثث ممددة وتفوح رائحة الموت والدماء واثار الرصاص الذي شوه بعض اجزاء الاجساد كالبطون المبقورة والرؤوس المهشمة شعر بغثيان وصواع حاد ورغب في التـقيؤ فخرج من المشرحة مسرعا وتقيأ بالخارج وانتابته هذه الحالة لعدة ايام لم يقدر فيها علي الاكل ، وبعد ذلك حملت جثث الجنود الي المدفن واقيمت لهم جنازة عسكرية حيث اطلقت ثلة من الجنود النار في الهواء تحية لهم ، كما كان هناك قس تلا صلوات علي اثنين من الجنود الجنوبيين المسيحيين ثم واروا الجميع الثري .. وكان يخيم علي الجميع حزن ممض ومرارة اليمة وكان هناك المفتش والذي جاء مع نجدة الجنود من واو ، وسنروي خبره لاحقا ، وذكرنا في اول هذه الذكريات انه كان صديقا للعميد ولكن عندما التقاه عند دفن القتلي لم يسلم العميد عليه وتحاشاه وشعر نحوه بنفور وكراهة وحمله ما حل بالمدينة جراء تهاونه واستهانته وتضليل الحاكم العسكري في واو كي لا يبعث بقوة من الجيش الي البلدة بقوله ان الحالة الامنية مستتبة وان مخاوف الشماليين لا اساس لها من الصحة .. ورجع

الجميع يجرجرون ارجلهم كالخائضين في الماء يكسوا وجوههم الخزن والاسي وكان جو البلدة كلها مشحون بالكآبة والحزن وليس لكلام الناس موضوع غير حديث الذي جري وتتواصل القصص وتتنوع الاحداث وقليلها حقيقي واكثرها مختلق او مزيد ومتخيل شأن احاديث الناس في مثل هذه المواقف.

ذيول الحادث

ويمضي العميد في روايته للاحداث قائلا انه في اليوم التالي وهو الخميس 1964/8/20 كان هناك حداد عام والنفوس مثقلة بالحزن ولم يذهب الموظفون الي اعمالهم ولم يكن لدي احد (نفس) ليعمل ، ولما كانت منطقة المعهد بعيدة عن البلد فقد طلب المدرسون من المفتش ان يعين حرسا من الجيش لبيوت المعلمين وعائلاتهم ولكنه قال ان القوة الموجودة لديه لا تفي بالغرض المطلوب وانه سيطلب قوة اضافية من واو لتقوم بالمهمة وقال لهم ان يتجمع المدرسون في الاستراحة الملحقة بمنزله وان تلتجيء النساء واطفال المدرسين في داره الواسعة وان يأتي كل واحد بفراشه ويفترشون ارض الحجرات في الاستراحة والمنزل مثلما يحدث في الحج في عرفات ومني ، وهم سيكفلون لهم الحماية في هذا التجمع الي ان تصل القوة الاضافية من واو وبعدها يرجعون الي منازلهم وتوفر لهم الحراسة هناك. وقضينا الليلة في الاستراحة مفترشين المراتب علي ارضية حجرة واسعة ودار الحديث عن تجربة كل واحد من المدرسين في تلك الليلة الليلاء مما اصبح مادة للتفكه وللتسرية عن النفوس الممتلئة حزنا وغما ، وقال ناظر المدرسة الوسطي للبنين انه كان يلعب لعبة الكنكان بورق اللعب عندما بدا ضرب الرصاص واخذت الطلقات تمر في اجواء النادي

القريب من مركز البوليس ءَ فهب اللاعبون ورواد النادي وركضوا للخروج فمنهم من قفز فوق سياج النادي القصير ومنهم من تدافع للخروج من بوابة النادي والكل يبغي النجاة بجلده واللحاق بعائلته في منزله ليدبر امر خلاصهم وقال انه رغم قصر قامته قفز من فوق السور وجري كالريح وهو ما يزال قابضا علي اوراق اللعب في يده وهو في جريه وقع منه كرت فانحني والتقطه واستأنف جريه حتي وصل منزله وهو قابض علي كروت اللعب ، ثم جمع زوجته وبناته الاثنتين الصغيرتين والخادمة في حجرة الحمام وجلسوا علي الارض بعد ان اقفل باب الحجرة وقبلها اقفل باب المنزل وكل ابواب الحجرات الاخري وجلسوا صامتين مرعوبين وقال انه بعد قليل احس بماء يسيل علي الارضية الاسمنتية وبلل جانب جلبابه واستغرب لان الحنفية مقفلة وكانت تجلس بمقربة منه الخادمة واكتشف ان ما حسبه ماء كان بولا.

وكان هناك ثلاثة مدرسين شبان صغار في المنزل واتاهم جاريا كالاعصار زميل لهم وروي لهم بين انفاسه اللاهثة وكلماته المتقطعة ما جري ويجري في البلد فاقتحموا كلهم الحمام ورقدوا في حوض الحمام الاسمنتي المنخفض بعد ان اقفلوا الباب من الداخل .. (ايه حكاية الحمام دي في الاختباء) اما الذي فاق الاولين (اصحاب الحمام) في التخفّي وكان يشبه الجنوبيين لونا وشكلا فانه خلع ملابسه كلها وبقي عريانا كما ولدته امه ولم

يكتف بذلك بل اقتحم اقرب منزل اليه وكان لاحد الكتبة الجنوبيين ووجده مخمورا في سريره ولكنه كان صاحيا وصاح به وطرده وطلب من زوجته ان تناوله الحربة وجري الاستاذ العريان الي الشارع واحتار ولم يجد مكانا يختبي فيه ولم تطل حيرته فانه جري الي مرحاض احد البيوت ورفع غطاء الفتحة التي يدخلون منها جردل المرحاض وسحب الجردل للخارج ودخل من الفتحة واختبأ في مكان الجردل.

ونكر اخر انه قرأ الايات المنجيات واية الكرسي وسورة يس والمعونتين واخذ يرددها بآلية مطردة حتي الصباح وهنا قاطعه مدرس مولانا كان راقدا في اخر الحجرة وانتفض قاعدا وقال بصوت عال وفي حرقة واسي (آخ أمبارح نسيت اقرأ سورة يس) واما الاستاذ ... المسيحي فقد قال انه اسكت العيال وامهم واقفلوا عليهم باب الحجرة بالمفتاح والترباس وكان لديه زجاجة شراب ووقف جانبا وراء الباب وفي يده اليمني عود (الفندق* – مدق من الحديد – وفي يده اليسري زجاجة (الشري) يأخذ منها جرعة او اثنتين وهو متأهب ليهشم رأس من يقتحم الباب ويدخل الحجرة.

واخر قال انه اقفل باب الحجرة عليهم وكان لديه بندقية خرطوش ووقف مستعدا ولكنه كان في قمة التوتر واخذ صغاره يبكون واخذ هو في حنق يكلم زوجته بصوت خفيض (سكتي العيال – اكتميهم – كممي خشومن – انتي عايزة المتمردين

يعرفوا محلنا) ، ورجل اخر صديق للعميد وهو ملاحظ الغابات ويلقبونه بعوض كتل فقد كانت له تجربة سابقة مع التمرد الاول في عام 1955 عندما كان في الاستوائية ونجا من الموت باعجوبة وها هو التمرد يلحق به مرة ثانية في بحر الغزال ولكن كتل احتاط لنفسه واحدث ثغرة في سقف مخزن منزله بقرب الجدار ووضع سلما علي الحائط يتسلقه عند الحاجة الي سطح المنزل وزود الثغرة بباب متين من الخشب يرفع من الداخل ويقفل من الخارج ، وملاحظو الغابات يزودونهم في العاددة ببندقية (اب عشرة) للدفاع عن انفسهم لانهم يعملون في مجاهل الغابات وربما يتعرضون للهجوم من الحيوانات المتوحشة .. ولما وقع الهجوم علي البلدة اخذ كتل بندقيته وارتقي سلمه واعتلي سطح المنزل وسد الثغرة واقفلها من الخارج ثم انبطح علي بطنه قابضا علي البندقية ويشاهد من مكمنه كل شيء .. وفيما بعد سأله العميد لماذا لم يطلق النار علي المتمردين اجابه قائلا : قايلني انا عوير .. عايزني اضرب نار عشان يعرفوا مكاني ويصطادوني)

وقال العميد انه لم يكن يعرف عن يقين ان الحيوانات تخاف كبني البشر الا عندما حكي له التاجر الاغريقي قصة كلبه فقد كان لديه كلب ضخم شرس وكان يربطه بجنزير غليظ ولا يطلق سراحه الا بعد ان يخلدوا للنوم وفي تلك الليلة ومع اصوات طلقات الرصاص الاولي نبح الكلب نباحا شديدا واشتد

هياجه وبدا وكأنه سيقطع الجنزير من الشد والوثب ولما اشتد ضرب الرصاص اخذ صوت الكلب يخفت ويخفت حتي صار وحوحة واخذ يزوم في صوته كالعويل او كالمتوسل طالبا الخلاص او الرحمة ووضع ذيله بين رجليه الخلفيتين وهذه عند الكلاب علامة الاستسلام.

اما ما حدث من نوادر داخل البلدة في تلك الليلة الليلاء فيكفي حادثان كان ابطالهما اثنان احدهما رقيب في البوليس والاخر تاجر شاب وكان كل منهما طويلا عريضا وكان الرقيب ذو عضلات بارزة وكان (يكفكف) اكمام قميصه الي ما يقرب كتفيه ليظهر عضلاته المفتولة وكان دائم الحديث عن بطولاته وجسارته في القبض علي المجرمين وفي ليلة الهجوم كان في مركز البوليس يحمل مدفعا رشاشا صغيرا وكان يقف بالداخل بجانب باب المركز ويمد يديه بمدفعه الي الخارج ويطلق زخات من الرصاص وهو يصيح في كل مرة (انا اخوك يا فاطنة) ثم يتراجع للداخل وتجرأ واخرج رأسه من الباب وجاءت رصاصة اصابت غطاء رأسه (الكاب) واطاحت به بعيدا وهنا ركبت الرقيب هيستيريا فافرغ مدفعه في الهواء وزاد صياحه بانه اخو فاطنة وبعدها رمي المدفع واطلق ساقيه للريح هاربا .

اما التاجر الشاب فقد ادخل جسمه الضخم تحت كرسي (عملها كيف؟ الله اعلم) ظانا انه آمن في مخبأه ذاك وكان كلما سمع صوت طلقة رصاص يمسك رجله ويصيح (أي) او ظهره

ويصيخ (اخ) او كتفه ويصيح (آي اي) الي ان سكت صوت الرصاص .. وكان في منطقة السجن بعض السجانين منبطحين علي الارض وممسكين ببنادقهم وما يشعرون الا بواحد واقف علي رؤوسهم وبيده حربة فسألوه بأصوت عالية مضطربة (انت منو يا زول) فاجابهم (انا زوال بتاء اقبة) انا زول بتاع عقبة اي الغابة وبدأ الجنود في اطلاق النار عشوائيا ولم يصيبوه وجري (زول العقبة) واختفي بين الحشائش والاشجار فقد كان يصحب المتمردين بعض حاملي الحراب والنشاب.

اما الذي حدث خارج التونج فانه عندما تلقي المسئولون في واو المحادثة التلفونية عن الهجوم من مركز الشرطة بالتونج جهزت سريعا قوة من الجيش بقيادة رقيب كطليعة للنجدة لتذهب سريعا الي التونج وامرهم القائد الحاكم العسكري ان يصحبوا معهم مفتش التونج وبحثوا عنه ووجدوه في نادي (الاغريق) (الجالية اليونانية) ونقل اليه الرقيب النبأ وبلغه الامر بالذهاب معهم وامتثل للامر بعد ملاحاة وعندما اقتربوا من التونج علي بعد بضع كيلومترات منها ترجلوا من سياراتهم حتي لا يسمع المتمردون صوت السيارات فينتبهون وارادوا ان يباغتوهم وتقدموا علي ارجلهم وهنا وجدوا رقيب البوليس اخو فاطنة الهارب واخبرهم ان التونج قد وقعت في ايدي المتمردين وانهم قتلوا كل الشماليين والموجودين بها .. وقال المفتش اذا كان

الامر كذلك وان اولاده والناس جميعا ماتوا فلا داعي للذهاب الي التونج والاجدي ان يرجعوا لواو ليعيدوا التصرف علي ضوء هذا الواقع الجديد ، وهنا تدخل رقيب الجيش مخاطبا المفتش (جنابك ما تسمع كلام الزول ده .. الزول ده خواف ساكت وجايي هربان وانا الاوامر العندي امشي واصل البلد واشوف الحاصل شنو وانجد الناس وانا ما راجع) وقال له المفتش (انا آمرك بالرجوع لواو) فما كان من الرقيب الا ان اهوي بصفعة شديدة علي وجه المفتش وقال له بغضب وثورة عارمة (لو ما مشيت معانا ومعاك الزول الجبان ده بفرغ مدفعي ده فيكم واليبقي يبقي) و(بالكف) والكلام الناري هذا (استعدل) المفتش واذعن وتقدموا سائرين وكل جندي ممسك بسلاحه في حالة تأهب واصبعه علي الزناد وسار المفتش مادا يديه امامه كأنه ممسك بسلاح ووصلوا التونج ووجدوا ان المعركة ما زالت محتدمة فاشتبكوا مع المتمردين واصلوهم نارا حامية ودحروهم وفروا هاربين ، ثم اخذوا في جمع الجثث والجرحي وتأمين البلدة.

وفي يوم الجمعة الموافق 1964/8/21 اجتمع جميع المدرسين بكل المراحل – تدريب – وسطي – اولية – بمركز تدريب المعلمين وتمخض الاجتماع عن قرارات صيغت في مطالب رفعوها الي الحاكم العسكري ومفتش التعليم ورئيس المجلس التنفيذي للمديرية واشاروا فيها الي العريضة التي تقدم بها

الموظفون والتجار في التاسع من شهر يوليو 1964 الي الحاكم العسكري لايفاد قوة من الجيش الي التونج نظرا للارهاصات والاقاويل التي انتشرت بأن المتمردين سيهاجمون التونج وطالب اجتماع المدرسين بالاتي:

1/ وجود قوة من الجيش بصفة مستديمة في التونج.

2/ حراسة المدارس وبيوت المدرسين

3/ تجميع مدارس القري في التونج

4/ قفل المدارس فورا الي ان ينجلي الموقف الامني

5/ الترخيص للمدرسين بامتلاك السلاح للدفاع عن انفسهم

وقرر الاجتماع التوقف عن العمل في يوم السبت 1964/8/22 تعبيرا عن استياء المدرسين وحدادا علي الشهداء.

وفي يوم السبت حضر مفتش التونج الي مكتب العميد واجتمع بالمدرسين وشرح لهم الظروف التي اكتنفت الهجوم وكان اهم ما قاله انه كان يجهل جهلا تاما ان التونج ستكون عرضة للهجوم وانه ينقصهم الجهاز السري الذي يمدهم بالمعلومات ووعد بأن يمد المعهد باربعة من رجال البوليس للحراسة ليلا وذلك بعد تجميع المدرسين وعائلاتهم في بيوت التدريب وضربت عليهم حراسة من الجيش ليلا ، وكانوا قد قضوا الليلة الماضية في الاستراحة الملحقة ببيت المفتش وقضت المدرسات والنساء الليلة في منزل المفتش.

وفي اليوم التالي الاحد 1964/8/23 حضر من واو مفتش تعليم المديرية واجتمع بالعميد في مكتبه واخبره بأن جميع المطالب قد اجيبت ولكن بتحفظ بالنسبة لامتلاك السلاح وهو ان يصرح لكل من يرغب من المدرسين سلاحا اثناء فترة عمله في الجنوب ، واذا نقل الي الشمال سحب منه التصريح عدا المستحقين قانونا ، وقال لهم انهم بدأوا فعلا في تجميع المدارس النائية ، ولكنه رفض اقتراح قفل المدارس فورا نسبة لارتباطه مع الوزارة بأن تسير السنة الدراسية كما هي علي حد قوله. وقال له العميد انه يفهم أن يكون هذا الالتزام بسير الدراسة في الظروف العادية وعند استتباب الامن ولكن في الظروف الحالية فان المدرسين لن يستطيعوا ان يعملوا فحالتهم النفسية منهارة ويشعرون بانهم مهددون في ارواحهم وارواح عائلاتهم ولذلك لا بأس من تعطيل الدراسة حفاظا علي ارواح المدرسين حتي ينجلي الموقف ولكن المفتش اصر علي موقفه ودار هذا الحديث في حضور نائب العميد وقال العميد انه سيرجيء بقية ما دار في هذا اللقاء الي صفحات لاحقة.

واستأنف المدرسون العمل في جو مشحون بالتوتر وعدم الطمأنينة والنفوس ملأي بالسخط والغضب مما حدث ومن موقف المسئولين المتهالك.

وجاءت مصيبة اخري في يوم الثلاثاء 1964/8/25 عندما قتل المتمردون ناظر المدرسة الاولية الشمالي ومدرساً واحرقوا

جثثهم وجرحوا مدرسا اخر بينما تمكن احدهم من النجاة سليما ووصل الي واو واخبر المسؤولين بالحادث الذي حصل في قرية كواجينا التي تقع في منتصف المسافة تقريبا بين واو والتونج وتوجد فيها مدرسة اولية وسنورد ذكرها فيما يلي من صفحات ولكن يبقي السؤال : لماذا لم تنقل مدرسة كواجينا الي واو مثلها مثل مدراس القري الاخري؟ او لماذا لم ينقل الناظر والمدرسون الشماليون؟ وسمع مدرسو التونج بفاجعة كواجينا في يوم 26/8/ 1964 وبلغ الهياج العصبي الذروة وهبطت الروح المعنوية الي الحضيض ومما زاد الطين بلة انه سجبت قوة الحرس التي كانت تحرس منطقة المعهد والمكونة من 7 جنود واستبدلت بجنديين من البوليس ، وكان لسحب القوة اسوأ الاثر علي نفسية المدرسين وعلي نساء المدرسين خاصة اللاتي اصابهن الفزع بعد الاطمئنان المؤقت واخذن يصررن في الحاح مستميت علي ازواجهن ليبعثوا بهن واطفالهن الي ذويهن في الشمال – وكن محقات في ذلك كل الحق – وطلب العميد من زوجته ان يرسلها الي الشمال فأبت وامتنعت وقالت له ان مصيرها مرتبط بمصيره كيف يكون ، وهو ما زال يحفظ لها هذا الموقف النبيل الي الان والي اخر العمر ، ويواصل العميد حديثه قائلا: وسارت الحياة بنا في اضطراب نفسي وشد عصبي كسفينة تتلاعب بها امواج البحر الهائجة واصبحنا ذات يوم فوجدت ان كل مدرسي المعهد وعائلاتهم قد غادروا التونج بعربة لوري

تجارية ولم يتبق من الشماليين سواي ونائبي ومساعد العميد ، ليس ذلك فحسب بل ذهب معهم الي واو مدرسو المدرسة المتوسطة والصناعية المتوسطة ولم يبق الا ناظر المدرسة الوسطي وناظر ومدرسو مدرسة البونقو الاولية من الشماليين وكذلك المدرسات بالمدرسة الاولية بنات ولكن عندما وصلوا الي واو ارجعوا ثانية الي التونج بامر الحاكم العسكري وطلب من مفتش التعليم ان يستجوب كل واحد منهم كتابة ليبين السبب الذي من اجله ترك عمله وجاء الي واو توطئة لاتخاذ الاجراءات التأديبية بحقهم. وحدث هذا في يوم الاحد الثلاثين من اغسطس 1964 واخبرني مفتش التونج بأن وزير التربية والتعليم اللواء طلعت فريد سيزور التونج غدا 1964/9/2 ليتفقد المدرسين والمدرسات ، كما تلقيت مكالمة تلفونية بهذا المعني من مفتش التعليم بواو .. وفي صباح اليوم التالي ذهبت مع المفتش وقائد قوة الجيش الي مشارف البلدة لاستقبال الوزير ، واهل علينا ركبه في رتل من السيارات (كنفوي) كان في مقدمته اللواء الوزير جالسا بجوار السائق ويحمل الي جانبه مدفعا رشاشا وتتبعه سيارات المرافقين له وقوة حراسة من الجيش وكان برفقته الحاكم العسكري والقائد للجيش بمديرية بحر الغزال العميد عبدالحميد خيرالسيد ووكيل وزارة التربية والتعليم السيد محمد الحسن عبدالله ووكيل وزارة الداخلية ومدير عام البوليس ومفتشة تعليم البنات بوزارة التربية والتعليم ، واعد

له برنامج يبدأ بتناول طعام الافطار في بيت المفتش ومن هناك يذهب لمعهد التدريب للاجتماع بالمدرسين العاملين بالتونج ثم يجتمع بالمدرسات بمدرسة البنات. وحال وصولنا الي منزل المفتش في التاسعة صباحا بدء في اعداد المائدة واكلنا في صمت في انتظار ان يبدأ الوزير الحديث ولكنه لم يتحدث بحرف الي ان فرغنا من الافطار ثم انتقلنا الي الصالون واخذنا في احتساء الشاي والقهوة والوزير ما زال صامتا ثم فجأة التفت الي وكنت جالسا بالقرب منه وسألني (المدرسين جروا ليه لواو؟) فاجبته بانهم خافوا علي انفسهم وعائلاتهم واصابهم الذعر عندما سحبت قوة الحراسة من جنود الجيش كما ان فيهم مدرسين صغار السن لم يسمعوا صوت طلقة رصاص في حياتهم ، وقاطعني قائلا (المفروض انكم انتوا التخافوا لانو عندكم عائلات ولكن ديل الواحد علي نفسه بس وما مفروض يجري والخوف ما عيب لانك تخاف في الاول وبعدين تتصرف بثبات وحسه اذا جاء رصاص انتو بتروحوا ساكت وتلقانا انا وعبدالحميد (العميد الحاكم العسكري) (اخذنا ساتر) وهنا في حركة مسرحية غير متوقعة قفز من الكرسي واستتر وراءه ثم رجع وقال (الواحد مننا يعمل Freezing ويعرف مصدر الطلقات ويرد عليه .. واللواء طلعت فريد مشهود له بالشجاعة الفائقة وكانت له بطولات في الحرب العالمية الثانية في كسلا ضد الطليان عندما كان ملازم اول ، كما انه معروف

كرياضي مطبوع ولاعب كرة قدم جيد عندما كان يلعب في فريق الهلال العاصمي. وخاطب العميد عبدالحميد قائلا (يا عبدالحميد من الليلة المدرسين يتدربوا علي اطلاق النار خليهم يملوا التونج كلها نيران عشان المتمردين ما يحقروا بيهم) واجابه الحاكم العسكري (حاضر معاليك) وذهبنا الي المعهد للاجتماع بالمدرسين وخاطبهم بان الهدف من زيارته ان يتفقدهم ويشد من ازرهم وان يسكن نفوسهم وان يستمروا في عملهم برغم الذي حدث ووعد بأن المدرسين سيسلحون واصدر تعليماته بأن يتدرب المدرسين علي اطلاق النار ابتداء من عصر ذلك اليوم ، وهنا طلب الاذن احد المدرسين ليتكلم وقال للوزير ان اطفاله لا ينامون الليل من الفزع وان ناموا قليلا فانهم يقومون مفزوعين ورد عليه الوزير بكل جدية اديهم اسبرو (اسبرين)،ومدرس اخر قال له اننا لا نقدر علي التدريس وعقولنا وقلوبنا منشغلة بعائلاتنا الذين تركناهم بالمنازل ولا نعرف مصيرهم ونحن بعيدين عنهم. وقام مدرس تبدو علي ملامحه الغيظ الشديد والثورة المكبوتة وخاطب الوزير قائلا (معاليك الوزارة اتعاقدت معاي انا وما اتعاقدت مع مرتي واولادي ولذلك اطلب ان نرسل زوجاتنا واطفالنا لاهليهم في الشمال وانحنا رجال مستعدين نقابل الربنا كاتبها لينا – عشان كده خلوا العوائل تسافر) ، ورد عليه الوزير (لا ، لا ما في عايلة تغادر التونج لانه ديل اذا راحوا الشمال حيثيروا الفزع

بين الناس ونحن بوفر ليكم الحماية هنا) والتفت الي الحاكم العسكري وقال له (يا عبدالحميد من النهار ده العصر المدرسين يبتدوا في تمارين ضرب النار) وانفض الاجتماع وودع الوزير الحاضرين وتمني لهم السلامة ومن هناك ذهب الي مدرسة البنات للاجتماع بالمدرسات، وعلمنا فيما بعد ان حديثه لهم لم يخرج عما قاله للمدرسين ومن هناك قفل راجعا الي واو ، وكان لزيارته اثر بليغ في نفوس المعلمين والمعلمات واحسوا بأن المسئولين علي اعلي مستوي مهتمين بهم وان الوزير نفسه اتي اليهم من الخرطوم بالرغم من مخاطر الطريق والخطورة علي حياته ومرافقيه واعتبرناها مشاركة انسانية في المكان الاول في السراء والضراء وكذلك تطبيق عملي لقول رسولنا الكريم(كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) ، هذا وقد شاب النفوس شيء او كثير من السخط والغضب لعدم السماح لنسائنا واطفالنا مغادرة التونج الي ذويهم في الشمال حيث الامان.

وقد جري في عصر نفس اليوم البدء في تعليمنا اطلاق النار ومن طريف ما يحكي في هذا الامر ان (التعلمجي) المعلم كان (جاويش) رقيب من الجيش من اخوتنا النوبة وكانت لهجته العربية يشوبها شيء من العجمة شأن بعض السودانيين الذين لا تكون لغتهم العربية هي لغة الام لديهم ، فقد بدأ المعلم الدرس الاول بتعريفنا باجزاء البندقية وفكها وتركيبها والغرض من ذلك فقال لا فض فوه (القرد) (الغرض) من فك بندقية (ندافة)

(نظافة) او ايلاج (علاج) كسر وكرر هذا القول مع الوقوف والتركيز علي كلمة (أو) وبين لنا عمليا كيفية عمل ذلك بما يسمونه بلغة الجيش (بيان بالعمل) ثم بسط مشمعا طويلا امامنا وطلب منا ان يفك كل واحد بندقيته وبعد ذلك امرنا بتركيب البندقية مع السرعة والمسابقة لمن يحرز المركز الاول في ذلك .. واصبحنا بين الغداة والضحي طلبة كبار يتلقون العلم .. ثم شرع التعلمجي في تعليمنا كيفية اخذ الساتر والتخفي، اي الاستتار، من النيران والاختباء والحق ان مدرسنا كان ممتازا ولكن للاسف لم تدم تلك الدروس فقد استدعي معلمنا الي مهمة عاجلة في طريق رمبيك حيث احدث المتمردون حدثا هناك.

وقد ذكرت انفا ان قوة الحراسة من الجيش قد سحبت واستبدلت بجنديين من البوليس ولكن فوجئنا بسحب جنديي البوليس وصارت دروية عربة البوليس تمر علي المعهد عدة مرات اثناء الليل واستمرت تمر في فترات منتظمة لمدة ثلاثة ايام ثم بدأت تجيء في فترات متباعدة ثم انقطعت كلية مما دعا المدرسين لارسال برقية الي الحاكم العسكري في واو في هذا الصدد وكانت الاستجابة فورية فقد جاءني بمنزلي عند المغرب النقيب فابيان قائد قوة الجيش بالتونج واخبرني ان الحراسة من الجيش ستعود ثانية وابتدأت الحراسة فعلا في نفس الليلة.

وبعد زيارة وزير التربية والتعليم للتونج زار البلدة ثانية الحاكم العسكري وقائد حامية بحر الغزال وطلب من العميد ان يجتمع

بالطلبة المدرسين في المعهد فقد اظهرت التحقيقات التي جرت بعد حادث الهجوم علي التونج ان بعض الطلبة المدرسين كان لهم ضلع في الحادث وان واحدا منهم اشترك فعلا في العملية وهو الذي كان يطلق النار علي منزل العميد ، وقد ذكر العميد في صفحة سابقة انه قال لزوجته ان الذي يهاجم المنزل شخص واحد وصدق حدسه لاحقا عندما اظهرت التحقيقات ان ذلك الشخص كان هذا الطالب ، ويجدر الذكر ان ذلك الطالب – كما ذكر العميد – جاءه قبل الهجوم باسبوع وطلب منه الاذن للذهاب الي قريته لمدة اسبوع فقد جاءه نبأ بأن ابنه توفي واعطاه العميد ثلاثة ايام لانه كان في الفرقة النهائية التي كانت علي وشك التخرج واي تأخير يؤثر علي دراسته وفوق ذلك اعطاه العميد مبلغا من المال مساعدة له ، ولكن كان جزاءه ان اراد قتله وزوجه .. حقا يصدق احيانا المثل (اتق شر من احسنت اليه) او بيت الشعر:

ان انت اكرمت الكريم ملكته

وان انت اكرمت اللئيم تمردا

وكان عذره بوفاة ولده كذبا وانما اراد ان يلحق بالمتمردين حتي لا يثير شبهة وقال العميد انه واثناء الهجوم واصوات الرصاص تلعلع كان الطلبة المدرسون في داخلياتهم القريبة من مساكن المعلمين يضحكون ويقهقهون باعلي اصواتهم شماتة او استحسانا لست ادري! ولكنه موقف يدل علي الضغينة الشديدة

الممزوجة بالكراهية المريرة والتشفي البغيض دونما سبب وجيه مع اننا جئنا رسل تنوير وسلام ومحبة!
واجتمع الحاكم العسكري بالطلبة وقال حديثا ممتلئا بالوعيد والتهديد وكان مما قاله(انحنا بعد ده اي واحد يرفع راسه سندوسه بالجزمة) وقال العميد انه لم يستحسن هذه المقولة ، واعقبت زيارة الحاكم العسكري بعد ايام زيارة وزير الثروة الحيوانية السيد سانتينو دينق وهو من قبيلة الدينكا الكبيرة وهو من اشد انصار الوحدة بين الجنوب والشمال وقد طلب ايضا ان يجتمع بالمدرسين ، وتحدث اليهم بالعربية وبلغة الدينكاونصحهم بأن لا ينجرفوا مع تيار المتمردين فيجلبون الدمار لبلدهم وذويهم وأنهم أفيد للجنوب بأداء رسالتهم التعليمية وأورد لهم مثلا لدي الدينكا يقول ان البقرة المصابة بداء يخشي منه ان يصيب بقية القطيع تعزل بعيدا وهكذا الامر مع المتمردين فعليهم الابتعاد عنهم وان لا يتأثروا بهم وان من يود ان ينضم اليهم فعليه ان يختار لنفسه وان يلحق بهم ولكنه سيمرض ويموت.
وسارت الدراسة في جو مليء بالكآبة والسخط والشعور بالمرارة من موقف الطلبة المشين وقد جبه المدرسون الطلبة برأيهم فيهم وفي سلوكهم وانهم لا يستأهلون ان يعلموهم حيث انهم يريدون لهم الخير بينما يضمرون هم الشر وساد الجو روح كريهة يجللها الشك ويغمرها عدم الثقة ويغلب عليها الكراهية من الجانبين وان كانت بصورة اوضح من جانب المدرسين

واصبح المناخ غير صحي للتعليم من الملقي والمتلقي علي السواء .. وفي تطور سريع غير متوقع وصلت للعميد برقية من مفتش التعليم بواو تفيد انه بناء علي تعليمات الوزارة ستتعطل الدراسة ويمنح المدرسون والمدرسات عطلة طويلة ليذهبوا الي ذويهم في الشمال علي ان تستأنف الدراسة عندما تهدأ الامور ويستتب الامن. ووقع هذا القرار بردا وسلاما علي النفوس الوجلي والمشاعر المضطربة ووصلت تفاصيل اكثر عن الموضوع تفيد بأن المدرسات سيسافرن جوا من واو الي الخرطوم وأن يسافر المدرسون وعائلاتهم بالقطار ويتساءل المرء لم لا يسافر الجميع بالطائرة وهم قد خرجوا من ظل الموت؟ أو يسافر علي الأقل بالطائرة نساء واطفال المعلمين وهل ستغني بضعة الوف من الجنيهات وهي اجرة السفر بالطائرة خزينة الدولة؟ هذا مع ان الرحلة بالقطار من واو الي الخرطوم تستغرق ثلاثة ايام في الاحوال العادية والان السكة غير مأمونة والمتمردون في كل مكان ، وان اصاب هؤلاء مكروه او عائلاتهم فمن يبوء بالمسئولية عند ذلك ولات حين مندم! ان بعض القرارات ينقصها البصر والبصيرة وتدل علي بلادة الذهن والحس!

وفي يوم السبت الثاني عشر من سبتمبر 1964 سافر بعربة المعهد الي واو المدرسات العاملات بمدرسة التونج الاولية للبنات ومن هناك سيستقلن الطائرة الي الخرطوم وفي اثرهن في

اليوم التالي ذهب المدرسون وعائلاتهم الي واو ليستقلوا القطار من هناك الي الخرطوم. وكان هذا القرار المفاجيء بقفل المدارس وتسفير المدرسين والمدرسات الشماليين الي الشمال في عطلة طويلة نتيجة للضجة والقلق علي ارواحهم عندما وصلت انباء الحوادث الدامية الي هناك وبخاصة مقتل وحرق ناظر ومدرس كواجينا وكان لمطالبة الناس وبخاصة اهل المعلمين والمعلمات برجوع ابنائهم وبناتهم وحتي لا تتكرر مأساة التمرد في عام 1955 عندما قتل الاف الشماليين الموجودين بالجنوب ومن بينهم عشرات المدرسين والمدرسات. وكما ذكرت انفا كان لمقتل ناظر ومدرس كواجينا وحرق جثتهم الاثر الفاجع والهيجان العاطفي في نفوس الناس في الشمال مما دفع الحكومة لاتخاذ قرار تعطيل الدراسة وتسفير المدرسين بعد ان كان قرار وزير التربية والتعليم الذي اعلنه لمدرسي التونج انه لا خروج للعائلات وان تستمر الدراسة.

مواقف

وقال العميد ان مصداقية سرد الحوادث تقتضيه ان يذكرها بخيرها وشرها وسالبها وموجبها ومنها انه كان بالتونج قبل الهجوم باسبوع مسئول من مكتب التعليم بواو جاء في جولة تفتيش علي المدارس الاولية وهما مدرستان كان بالامكان ان يفرغ منهما في يوم واحد ولكن طاب له المقام فانفق اسبوعا كاملا كان فيه مكان الاحتفاء والولائم والشراب واستمرأ القعاد وكان ينزل ضيفا علي نائب العميد الاعزب ، وبعد ان امضي اسبوعا ذهب الي رمبيك ليواصل عملية التفتيش وهو هناك حدث الهجوم علي التونج فمكث في رمبيك زمانا حتي اطمأن تماما ان الاحوال قد هدأت فاستقل السيارة راجعا الي واو وجاز التونج دون ان يتوقف فيها لحظة للسؤال عن المدرسين والمدرسات او ليواسيهم او يتفقدهم! ولا اود ان اعلق علي هذا التصرف لغصة احس بها في حلقي وحبسة اليمة في نفسي!

اما الموقف الثاني فكان بطله مفتش تعليم المديرية وهو المسئول الاول عن التعليم والمعلمين وممثل الوزارة فقد جاء الي التونج بعد يومين من الهجوم عليها وزار المعلمات ثم قفل راجعا الي واو دون ان يزور المدرسين في مدارسهم او يتفقدهم وعلمنا بمجيئه وعودته من المعلمات ، ثم جاءني بعد يومين واجتمع معي ونائبي في مكتبي وذلك بعد اجتماع جميع مدرسي التونج

وتقديمهم للمطالب للحاكم العسكري بصورة لمفتش التعليم ورئيس المجلس التنفيذي والتي ذكرتها في الصفحات السابقة مما يفسر ان مجيئه لم يكن من تلقاء نفسه وانما بتكليف او امر من الحاكم العسكري ليبلغنا ما قر عليه الرأي ازاء مطالبنا ، ويواصل العميد حديثه قائلا: بعد ان فرغ المفتش من كلامه قلت له ان المدرسين كلفوني ان انقل له رسالة وهي انهم في غاية الاستياء (هكذا!) لانه جاء الي التونج وقابل المعلمات ولم يكلف نفسه الالتقاء بنا او تفقد حالنا وهو الرجل المسئول عنا دعك عن اي اعتبار اخر. ورد عليّ بقوله "انا عارف واجبي كويس وما عاوز زول يوريني ليه ، وانا عشان كدة جيت مرة ثانية عشان اشوفكم وخاطبني قائلا" انا عارفك من عايلة مقاتلة من اجدادك ووالدك مقاتل بطل" وقال العميد " لا تعليق لدي فالغصة ما تزال في الحلق والحبسة الاليمة في النفس.

اما الموقف الاخر فبطله تاجر شمالي جلابي كما يقولون عنهم هنا وهذا التاجر كان يتعامل معه معظم المدرسين الشماليين ويشترون منه حوائجهم سواء (للميز) او الشخصية ، وعندما جاء الخبر بقفل المدارس وسفر المدرسين والمدرسات كان ذلك في منتصف الشهر تقريبا كانوا في حاجة الي نقود لمقابلة متطلبات السفر والانفاق عندما يذهبون للشمال فكتبوا توكيلات بمرتباتهم عن الشهر لذلك التاجر ليعطيهم النقود ويصرف التوكيلات عند نهاية الشهر ولكنه اعتذر بشدة وحلف لهم ان

ليس لديه سيولة نقدية .. وحاروا ماذا يفعلون ، وهم في حيرتهم تلك طلب منهم احدهم أن يذهبوا للتاجر الاغريقي نكولا متعهد الغذاءات للمدارس ، وبعد تردد منهم ذهبوا اليه واعطاهم كلهم رواتبهم واخذ توكيلات منهم مع انهم لم يكونوا يشترون منه شيئا! لا تعليق!

وهناك امر لا يليق ان افوت عليه مر الكرام وان كان سرا فان الوثائق السرية للدول يعلن عن سريتها بعد انقضاء ثلاثين سنة عليها والان مضت ست وثلاثون سنة علي تلك الواقعة ، فانه حدث عقب زيارة مفتش التعليم لي بمكتبي في التونج ان بعث لي ببرقية معنونة (سري) يطلب فيها ان استجوب كتابة المدرسين الذين تغيبوا عن العمل وذهبوا الي واو بدون اذن. وكان المدرسون وعائلاتهم قد غادروا التونج في يوم 30/8/ 1964 وعادوا كلهم عدا اثنين في يوم 1964/9/4 ولحق بهما الاخران بعد ذلك ، وقد ذكرت ذلك فيما سبق من صفحات ، ويضيف العميد في روايته : واني حين اميط اللثام عن هذه المكاتبات فلأبين الحالة النفسية والاجواء المقبضة المخيفة التي كان يعيشها المدرسون وعائلاتهم وان اعطي صورة لما كان عليه الحال فامتثلت للامر رغم عدم اقتناعي به وبعثت استجوابا سريا لكل مدرس ليوضح كتابة اسباب تغيبه عن العمل بدون اذن وذهابه الي واو في يوم 30 اغسطس 1964 . ويجدر هنا ان اذكر انني ما زلت احتفظ بردود المدرسين ولم ارسلها

للمفتش لانه قبل ارسالها جاءنا القرار بقفل المدارس والسفر الي الشمال. وانا هنا اورد مقتطفات منها كما خطتها ايديهم فقد كتب احدهم ما يلي:

"كتبنا للسئولين بواو نناشدهم بكفالة حراستنا ليلا ونهارا بصورة لمكتب التعليم وبالرغم من تلك الحوادث الدامية لمعاودة نشاطنا فوعدونا استجابة رغباتنا وشرعوا في تنفيذ الحراسة وبعد مضي بضعة ايام سحبوا الحراسة وفي تصريح لمسئول انهم لا يعيرون الحوادث الفردية اعتبارا وحدثت حادثة كواجينا البربرية التي استشهد فيها اثنين من زملائي واثبتت الاحداث ان هؤلاء الخوارج ليست بغيتهم السلاح وحده بل سفك دماء الابرياء وليس ذهابي لواو الا لعلمي ان الامن مستتب بها وعند وصولي لواو قدمت نفسي لمفتش التعليم .. ومن الخطل والرعونة ان ابقي بمكان دارت فيه حوادث دامية زهاء السبع ساعات حسوما وانا اعزل دون حراسة قوية وليس يعقل ان اجابه الخوارج وهم مدججين بالاسلحة كالبرين والاسترلنج وانا احمل عكازا علاوة علي تهاون المسئولين المزري وتمنعهم عن حراسة زملائي عندما علموا بتمرد التونج شاهد علي ذلك واكفلوا لنا حراسة وامنا وطالبوني بالبقاء بمقر عملي وتلغرافنا الاخير للحاكم العسكري الصادر بتاريخ 12 سبتمبر بصورة لمكتب التعليم شاهد علي ما اقول)

وكتب مدرس اخر في بعض رده ما يلي:
(منذ بداية الحوادث حتي قتل وحرق زملائي بكواجينا لم تستقر نفسي بل كنت في قلق وخوف لكيلا اموت مقتولا او محروقا وانا اعزل ولذلك ذهبت وزملائي الي واو لاطالب بتسليحي لادافع عن نفسي ولاطالب بحماية مستديمة من الجيش لحماية البلد ولا يخفي عليكم اننا طالبنا قبل هذا بحماية البلد قبل وقوع الحادث اي يوم 9 يوليو 1964. وحتي الان لم تستقر نفسي ذلك الاستقرار الذي كنت فيه عند حضوري للجنوب لاول مرة واقولها صراحة اذا ما زاد عدم استقراري وقلقي وعلمت حينذاك اني لا اصلح لعملي ساطلب بواسطتكم استقالتي واذهب للشمال ، هذا ما لزم وشكرا)
وقال مدرس اخر (تهاونوا في ذلك -يقصد المسئولين -) حتي حصلت كارثة 1964/8/19 والتي راح ضحيتها اخوة بررة في سبيل اداء واجبهم المقدس فقد كانت ليلة رهيبة اقشعرت لها ابداننا وكادت ضربات القلوب تخترق الصدور من تلك الطلقات النارية الشديدة التي دامت سبع ساعات دون ان تجد من يردها وكيف لا يكون ذلك ونحن عزل من اي سلاح ندافع به عن هذا الجزء من الوطن الحبيب وعن اطفالنا وزوجاتنا ، ولولا عناية الله ولطفه لكانت مجزرة بشرية بشعة - كان سلاحي الايمان والتضرع الي الله - مرت الليلة المشئومة وفي صباح يوم 20 اغسطس لم يتفقد جندي ولا احد المسئولين الجزء الذي نسكن

فيه وحتي في ليلة العشرين من اغسطس لم توضع اي حراسة علينا ، الي ان يقول(وفي اليوم الرابع تجمع المدرسون وعائلاتهم في منازل التدريب ووضعت عليهم حراسة من الجيش لمدة يومين ثم سحبت هذه الفرقة الصغيرة المكونة من سبعة افراد واستبدلت برجلين من البوليس ببندقيتين لحراسة سبعة منازل افرادها اكثر من ثلاثين وما زاد ذلك الا رعب واضطراب باقي في قلوبنا ونفوسنا وصارت حالة زوجتي التي هي ام لخمسة اطفال صغار سيئة للغاية وحدا بي الامر لمغادرة التونج حفاظا علي اطفالي الصغار وشفقة بزوجتي التي كانت تعاني قبل سنة تقريبا مرضا عقليا حادا واضطرابا نفسيا شديدا استدعي علاجها بمستشفي الامراض العقلية بالخرطوم بحري زهاء الشهرين والسيد مفتش تعليم بحر الغزال يعلم ذلك بموجب خطاب الطبيب المحرر له بتاريخ 26 مايو 1964 ، هذا ما لزم وشكرا)

اما المدرس الرابع فقد ابتدر رده بما يلي:

(ان السبب الذي دعاني الي الذهاب الي واو هو الاستهتار الفظيع لا احب ان اعتذر عن هذا مطلقا – الذي نلقاه من المسئولين استهتارا بارواحنا) وبعد ذلك عدد الاسباب من سحب الحراسة وانقطاع مرور الدورية واختتم بقوله (سيدي .. هل لي ان آمل من وقف نظركم ولو قليلا حتي اجد لي عذرا ولست بجازع بل علي استعداد تام ان اتقبل كل شيء فقط ارجوكم ان

تعفوني من صفة التقصير في الواجب فانا لم اترك عملي هكذا كما يتبادر الي الذهن وما تركته الا حين صعب علي العمل واتي قراركم بقفل المدارس ونفذنا ذلك بالفعل لكن اعترف بأني ذهبت الي واو من غير اذنكم حين تشبثت بالحياة وعز عليّ ان افارقها – ماذا بقي بعد هذا؟ اما الموت فانه ملاقيني بلا شك ولست اخشاه وان كانت خشية الموت ليست جبنا وليست عيبا ايضا , انما اخشي بعد ان اموت يقال لي مغفل يري الخطر ولا يتقي شره ومثل هذا كمثل شهيدي كواجينا سمعت هذا النعت يضرب علي قفاهما عشية استشهادهما ، وشكرا)

لا ريب ان المقتطفات من ردود المدرسين تعطي امثلة لما كان عليه حالهم من اضطراب وقلق وعدم طمأنينة ولا تكتمل الصورة الا بايراد كتاب العميد Covering Letter المصاحب لاستجوابات المدرسين وقد جاء فيه ما يلي:

(لقد جاء ترك هؤلاء المدرسين لاعمالهم وذهابهم الي واو عقب حادث التونج المرعب عندما رأي الناس الموت بأعينهم تحت قصف المدافع وازيز طلقات الرصاص طيلة سبع ساعات كاملة، وكانت الفترة التي تلت ذلك فترة ذعر وتوجس وتوتر عصبي حاد ، وزاد من حدة ذلك كله التصرفات غير المسئولة من جانب المفتش وضابط بوليس التونج قبدلا من ان يبثوا الطمأنينة في القلوب الوجلة المرتاعة عمددوا الي زيادة جزعها وذلك بسحبهما لجنديي البوليس اللذين كانا يقومان بالحراسة ليلا في

المنطقة التي تجمع فيها المدرسون للمبيت وتقدر ان تتخيل مقدار الخوف الذي اصاب المدرسين وعائلاتهم اذا عرفت ان المنطقة الي يسكنونها كانت محروسة بتسعة من جنود الجيش في باديء الامر وهناك عامل اخر هام زاد في الهياج العصبي وهو قتل ناظر كواجينا ومساعده وحرقهما بعد خمسة ايام من الهجوم علي التونج وجاء هذا الحادث المفجع بعد قرار تجميع مدارس القري ، زد علي ذلك تضارب القرارات في فتح وقفل المدارس مما خلق بلبلة واضطرابا في صفوف المعلمين)

وخلاصة القول هو ان المدرسين قد فقدوا الثقة في المسئولين في التونج بناء علي تصرفاتهم قبل وبعد الحادث وشعروا بأن حياتهم يكتنفها الخطر في التونج وفي سبيل نداء الحياة والخلاص من الخطر اقدموا علي ما اقدموا عليه ، واذا طبقنا عليهم مقاييس القانون لما اعفيناهم من ترك اعمالهم وذهابهم الي واو بدون اذن ، ولكن نحن الذين عشنا ظروفهم العصيبة وقاسمناهم القلق المرعب وتوقع الموت في كل حين قد نجد لهم بعض العذر والعدل يأبي الا ان تكون الرحمة فوقه ، والسلام)

ويستطرد العميد في سرده للاحداث : لقد صارت الحياة كابوسا جاثما علي الاعصاب ووقف الخوف شاخصا يستولي علي النفوس شاهرا سيف الموت فوق الرقاب ، وطلب منا المسئولون ان يتجمع كل المدرسين العزابة في بيتين والمتزوجين في بيوت متقاربة لتسهل حراستهم ليلا ، وتنازل لي ناظر مدرسة فتحت

حديثا مؤقتا بالمعهد عن منزله وسكن هو وزوجته مع قريبه مساعد العميد وجاء للمبيت في منزلي ليلا مدرس جنوبي كان منزله متاخما للغابة ، وكان الجميع يهرعون الي المنازل في الساعة السادسة مساء ويقفلون الابواب والشبابيك باحكام ولا يخرجون منها الا في صبيحة اليوم التالي فقد كانت حالة منع التجول معلنة من السادسة مساء وحتي السادسة من صباح اليوم التالي ، وقد اعطاني احد المدرسين بندقية خرطوش وعدة رصاصات اتسلح بها .. ومع شروق الشمس يذهب كل واحد الي داره ويستعد للذهاب للعمل ، وتغير نمط الحياة العادي فقد نكر المتزوجون ان العلاقات الزوجية الحميمة صارت تتم بالنهار ، ومن دعته الحاجة للتبول ليلا فانه يفعل ذلك في الحمام من خلال ماسورة البالوعة. اما مواعيد الاكل فقد تغيرت ايضا وصار العشاء مبكرا. وظل الحال علي هذا المنوال وان خفت درجة التوتر بحكم التعود ولكن لم تتكسر حدة الترقب وحرارة التوقع ، وجاء الفرج في الحادي عشر من سبتمبر 1964 عندما تسلمت برقية من مفتش التعليم تخبرني بقرار الوزارة بقفل المدارس وسفر المدرسين والمدرسات الي الشمال في اجازة طويلة الي حين انجلاء الموقف واستتباب الامن. ووقع هذا القرار من نفوسنا وقع الماء في حلق الظامىء وحزمنا ما استطعنا حمله من ملابسنا وتركنا منازلنا بما فيها من متاع واثاث وشرعنا في الذهاب الي واو ليستقل المدرسات من هناك

الطائرة الي الخرطوم ويستقل المعلمون وعائلاتهم القطار اليها .. الم يكن من الاجدر ان يسافر زوجات واطفال المدرسين بالطائرة ويسافر المدرسون بالقطار ان لم يسافروا جميعا بالطائرة؟

وعلي كل حال لم تسع الفرحة الجميع بالابتعاد عن الخطر وانقضاء الكابوس المرعب وانجلاء الليل الطويل بصبح مشرق يحمل في طياته نسمات الخلاص وبشريات النجاة.

وذات صباح جميل اصطفت العربات في قافلة يحرسها من وراء ومن قدام قوة مسلحة من الجيش بقيادة ضابط ، وسارت القافلة Convoy ميممة واو تحمل المدرسين وعائلاتهم وهكذا اقفرت التونج من مشاعل النور ورسل التنوير من المعلمين واطبقت عليها قوي الشر والظلام.

ونحن في مسيرتنا كان يساورنا الهاجس باحتمال تعرضنا للهجوم من المتمردين في اية لحظة فما ندري ماذا تخبيء لنا الاحراش الكثيفة والغابات الممتدة علي جانبي الطريق ، وسارت القافلة بسلام الي ان وصلنا الي بلدة كواجينا التي شهدت مصرع وحرق ناظر المدرسة الاولية ومساعده وترجلنا من العربات وسرنا الي المدرسة ومنازل المدرسين التي تقع بمقربة من الطريق ، ودخلنا الي منزل الناظر وشاهدنا الحجرة التي قتل وحرق فيها مع مساعده ووجدنا اثار الدماء وسواد الحريق ما زالت عالقة بالجدران.

وفى غير ارادة منا فاضت اعيننا بالدمع وكما قال المتنبى :

شـــرقت بالدمع حـــتى كـــان الدمع يشـــرق بى

وشعرت بأن جبلا من الحزن قد حط علي قلبي .. وخرجنا مسرعين ..

اما التونج الجميلة فما قليتها ولن انساها فرغم مرارة ختام البقاء فيها والذكري الموجعة للاحداث الاليمة التي عشناها بآخره فقد كان لنا فيها ايام عبقت بالصفاء وضمخت بالود وتوشحت بالبهجة وتجللت بالمسرة .. فهل من لقاء جديد في احضان الحب والسلام؟ أود ذلك فما يزال الامل حيا في الخاطر.

هلال زاهر الساداتي
5 فبراير 2001م

مدينة نصر – القاهرة
مصر

الشركة العالمية للطباعة والنشر

تليفون : ٣٥٩٥٤٣٣

نفـذ الغــلاف : هاشم ود راوى

رقم الإيداع ٢٠٠٢/٨٧٥٨